تراث القاهرة العلمى والفنى

فى العصر الإسلامى

دكتور عبد الرحمن زكى



القاهرة ١٩٦٩



دكتور عبد الرحمن زكي

الناشر
مكتبة الانجلو بالقاهرة
١٦٥ شارع محمد فريد بالقاهرة

إلى أبناء القاهرة وعشاقها



مقدمة

ما زالت هناك طائفة كبيرة من نوابغ علماء العرب والمسلمين لم ينالوا ما يستحقون من التقدير الجدير بهم فى دراسة أعمالهم دراسة عميقة تتفق مع مكانتهم فى تراثنا الإسلامى العلمى .

حقا . لقد سلطت الأضواء على تراث علماء الطليعة من نوابغ الفكر العربى، فدرست حياتهم، وكتب عن مؤلفاتهم بحوث شتى فى كثير من اللغات الحية، ونذكر من هؤلاء العلماء الأجلاء : أبو بكر الرازى، والفارابى، وابن سينا ، وابن رشد ، وابن بطلان ، وأبو القاسم الزهراوى، وابن البيطار، وابن النفيس وعلى بن العباس وغيرهم من نوابغ الفكر العربى، ومع ذلك فما زالت الأضواء خافتة جدا على كثير من أعلام العلميين فى مصر الإسلامية ممن أسهموا فى علوم الطب والكيمياء والفيزياء، وعلوم الحيوان والنبات، والأحجار الكريمة ، بالرغم من وجود طائفة كبيرة من هؤلاء العلماء المصريين الذين أضاءوا سبل العلم فى مصر الإسلامية خلال الألف عام من تأسيس القاهرة .

نعم ، فإن القاهرة التى ورثت علوم الأولين فى مصر القديمة ، نهضت فيها حضارة الإسلام منذ الفتح العربى ، وبذلك أعطت القاهرة وهى إحدى ينابيع الفكر العربى — أعطت الدنيا مثلما أعطته بغداد فى أيام العباسيين حينما كانت قاعدة الخلافة الإسلامية ، ومثلما قدمته قرطبة عاصمة الخلافة الأندلسية

لأوربا . ولكن مما شك فيه أن القاهرة أعطت الدنيا ما لم تعطه غيرها من المدن الإسلامية الأخرى حضارة وعلما وفنا وفكرا .

واليوم ، إذ نحتفل بالذكرى الألفية للقاهرة ، نحاول أن نجلى الحركة العلمية ، التى نهضت على أكتاف علماء هذا البلد الأمين، ولذلك نقدم للقراء هذه الصفحات المتواضعة التى نعتبرها مدخلا يمهد لدراسة أوفى .

تشتمل هذه الصفحات على تمهيد وخمس مقالات، تناولنا فى المقالة الأولى الحديث عن ميلاد الحضارة الإسلامية فى مصر منذ أصبحت ولاية إسلامية وتبلور هذه الحضارة على أيام الطولونيين بفضل علماء الطليعة فى الطب والرياضيات والكيمياء ... الخ ..

وتحدثنا فى المقالة الثانية كيف آلت إليه هذه الحضارة فى أيام الفاطميين الذين بنوا القاهرة وشيدوا الأزهر، ودار الحكمة وعلى أيامهم لمعت طائفة عظيمة من الأطباء ورجال الكيمياء والفيزيقا والفلك والمؤرخين . وتناولنا فى المقالة الثالثة حضارة عصر الأيوبيين الذين تكاثرت فى أيامهم المدارس العلمية والدينية . كما نبغ كثير من العلماء بالرغم من كفاح أهل البلاد فى الجهاد ضد الصليبيين . وفى المقالة الرابعة تحدثنا عن حضارة مصر الإسلامية فى أيام المماليك البحرية والجراكسة ، ويلاحظ قارىء الكتاب كثرة العلماء وتوافرهم فى جميع ميادين العلوم ، ومما يؤسف له أن الكثيرين من هؤلاء العلماء لم تبحث أعمالهم العلمية كما تستحق ، ومع ذلك فقد درس العلماء الأجانب بعض ما كتبه هؤلاء ونالوا تقديرهم .

وفى النهاية تناولنا فى المقالة الخامسة بعض الصفحات المتصلة بالقاهرة وفنونها ومنشئيها ومعماريها، كما ألحقنا بعض الجداول الخاصة بالآثار الإسلامية التى شيدها الفواطم والأيوبيين والمماليك ، فجعلوا منها ينبوعاً حضاريا يباهى مركز الشرق والغرب بتراثها المجيد .

ولا شك فى أن تلك الحقبة من حضارة مصر الإسلامية أهم المراحل العلمية فى تاريخنا الثقافى العالمى كما يشهد تراثنا على ذلك . وقد أردت أن أستعرض تلك

المرحلة عرضا موجزا وسريعا ، إذ لا يخلو ذلك من فائدة وعبرة ، فى الوقت الذى تحتفل فيه البلاد بالعيد الألفى لتأسيس القاهرة ، فالتاريخ العلمى كغيره من فروع التاريخ ، متصل الأجزاء ، ترتبط الحوادث فيه بعلاقة السببية ، وهو يتحرك حركة مطردة إلى الأمام، تتصل بأمانينا وآمالنا ، وما نرسمه لأنفسنا من خطط، وما نتوخاة من أغراض ، كما قال فى ذلك عالمنا الجليل الأستاذ على مصطفى مشرفه (١٨٩٨—١٩٥٠) رحمه الله .

يناير ١٩٦٩ — عبد الرحمن زكى

القاهرة

تمهيـــد

تاريخ مصر الإسلامية

مصر بلاد أقدم حضارة عرفها التاريخ ، فعلى ضفتى النيل، أقام المصريون تلك الحضارة الزاهرة التى أشاد بذكرها علماء العالم ، والتى تناولت جميع ألوان العلوم والفنون ، وما زالت تلك المآثر الخالدة تبهر أنظار الشعوب فى دور التحف الكبيرة فى العالم وفى بلاد المصريين .

ففى الاسكندرية ، بعد إهمال عين شمس ، ازدهرت حضارة عالمية وأصبحت مركز إشعاع علمى . نواتها تلك المدرسة التى أنشأها البطالمة وجعلوا منها معهدا للبحوث فى الأدب والرياضة والفلك والطب ، وألحقت به أكبر مكتبة فى ذلك العصر المعروف بالعصر الهلنستى . وقد اشتهرت طائفة من علمائها ، منهم : سكافوروس فيلسوف الأفلاطونية الجديدة ، وبلوتينوس المصرى الأسيوطى (ت ٢٦٩) ، ثم بورفيرى السورى الأصلى وتلميذه أبامبليخوس (ت ٣٢٠) الذى تزعم الأفلاطونية الجديدة ، وإيقليدس الرياضى العظيم ، وأرستراخوس الفلكى (ت ٢٣٠ ق . م) ، وأراتوسيثنز (ت ١٩٤ ق . م .) الجغرافى الذى ابتكر طريقة لقياس محيط الأرض وقطرها أيضا ، وأبولونيوس الرياضى المهندس (ت ٢٢٥ ق . م) ، وكلوديوس بطلميوس الجغرافى الذى أفاد العرب منه كثيرا ، وهارون الطبيب الذى عرف العرب طائفة من مؤلفاته .

كانت مصر قبل دخول العرب قد أنهكتها الخلافات البيزنطية والمسيحية مما أثر كثيرا على حيوية شعبها ، فوهنت إصالته وركدت إمكانياته الفكرية فيما عدا القليل من الإسهامات المسيحية التى قام بها بعض رجال الكنيسة القبطية أو الرهبان فى الأديرة البعيدة فى قلب الصحراء . وجدير بنا أن نذكر بعض الأسماء الجليلة للرهبان المصريين ، كالقديس أنطونيوس (٢٥٠ — ٣٥٦ م) مؤسس نظام التوحد فى الرهبنة ، والقديس مقاريوس (٣٠٠ — ٢٩٠ م) مؤسس الرهبنة الاجتماعية فى وادى النطرون ، والقديس باخوميوس (٢٩٠ — ٣٤٨ م) واضع

مجموعة قوانين يعيش بمقتضاها الرهبان فى دير واحد ، ويعتبر باخوميوس مؤسس النظم التى اتبعت فى أرجاء العالم ، وقد اشترط إلمام الراهب بالقراءة والكتابة ليتمكن من قراءة الكتاب المقدس وكتب الآباء ، والأنبا شنودة (٣٣٣ — ٤٥١م) الذى اهتم بتثقيف رهبانه ، ويعتبر أعظم كتاب الأدب القبطى ، فقد كانت بلاغته الكتابية وفصاحته الخطابية من أظهر مواهبه .

وهكذا رأينا مصر مركزا هاما وملتقى لتبادل الأفكار والثقافات التى أثرت على الحضارة الإنسانية العامة. إذن فهذا الموقع الرائع الذى تمتعت به مصر منذ القدم فى قلب العالم القديم (أوروبا وأفريقية وآسيا) الذى كان معروفا يومئذ ، يضاف إليه حيوية شعبها وإدراكهم لما يحدث حولهم ، كان من أهم الأسباب التى خلدت حضارتها وحافظت عليها ، بل وأسهمت فى تطورها على مر السنين ..

ولم تنقض سنوات قليلة على شروق الإسلام فى الجزيرة العربية ، وقيام الخلافة العربية حتى سقطت أمبراطورية الفرس على يد قادة العرب ، ثم تقلص نفوذ بيزنطة فى الشرق الوسيط بعد انتصار العرب فى الشام والعراق وغيرهما . ولا مراء فى أن أرضا خصبة غنية تمتاز بموقع هام ولها حضارة كبرى ... ليس من اليسير أن تغيب عن تفكير وخطط قائد يجيش صدره بالأمانى . وعلى هذا لم يكد يهل عام ٦٣٩ م حتى كان القائد العربى عمرو بن العاص قد دفع قواته مجتازا بهم صحراء سيناء متقدما نحو النيل . وتسنى له بعد حصار لم يطل أكثر من شهر ، أن يقتحم الفرما (بلبزيوم القديمة) ، وأن يصطدم بالجيوش البيزنطية فى مصر . واستطاع عمرو أن يحتجز القائد البيزنطى « قيروس » محصورا فى بابليون المعسكر الرومانى[1] حتى وافق على شروط الصلح وانضم مع أنصاره فى الاسكندرية . بيد أن أمبراطور بيزنطة « هرقل » لم يرتض تلك الشروط التى فرضها عمرو ، وأقصى « قيروس » عن القيادة . ومع هذا فقد سقطت بابليون بعد حصار دام سبعة أشهر فى قبضة العرب . وفى عام ٦٤٦ م تخلصت مصر نهائيا من أى سلطان لأحد سوى العرب ، فانتقلت مصر التى بقيت عدة قرون مركز العلوم اليونانية وميدان صراع المعتقدات المسيحية إلى يد العرب ، ولتظل منذ ذلك التاريخ دولة

(١) بابليون اسم مدينة مصرية رومانية جنوبى موقع القاهرة ولا تزال بقايا حصنها باقيا إلى اليوم إصق متحف الآثار القبطية .

إسلامية عربية ، إن لم تكن حجر الزاوية فى بناء العالم الإسلامى بأسره ، قاعدتها الفسطاط (مصر القديمة) .

بقيت مصر لأكثر من قرنين يتولى أمرها ولاة من العرب ، يوفدهم الخلفاء من المدينة أو دمشق أو بغداد . وأصبح الإسلام دين الأغلبية فى وادى النيل منذ القرن التاسع أو قبل ذلك ، وتحولت البلاد من جراء موجات المهاجرين العرب الذين يفدون إليها من العالم الإسلامى فى الشرق فأمست ولاية عربية هامة.

وفى عام ٨٦٨ م عين أحمد بن طولون واليا على مصر، وما أن استتب له الأمر حتى أعلن استقلاله عن الخليفة العباسى ، وأقام فى القطائع عاصمته الجديدة، دولته التى عرفت باسم الدولة الطولونية وقامت بالحكم إلى عام ٩٠٥م، حينما عادت مصر لأحضان العباسيين لمدة ثلاثين سنة .

ولقد أفادت مصر من حكم الأسرة الطولونية وساد فيها رخاء نسبى. وأصبحت تخشاها الدولة العباسية، ويخطب البيزنطيون ودها بإرسال الهدايا النفيسة وإطلاق سراح الأسرى المسلمين ، ثم فتح أحمد بن طولون سورية . وأصبحت مصر فى عهده مستقلة للمرة الأولى بعد عصر البطالمة ، وعاد إليها سلطانها على الشام للمرة الأولى بعد عصر الفراعنة .

وفى عام ٩٣٥ م استطاع محمد بن طغج أن ينظم أمور مصر التى اضطربت بعد سقوط بنى طولون. فأسس الدولة الإخشيدية، ثم نسج على منوال ابن طولون فاستولى على الشام ثم ضم مكة والمدينة إلى حكمه ، واستمرت هذه الدولة بدورها لأربع وثلاثين سنة تنهض بأمور مصر حتى سقطت فى عام ٩٦٩ بأيدى الفواطم وجعلوا منها أهم ولاية فى أمبراطوريتهم وقاعدتها القاهرة .

* * *

كان إنشاء جوهر الصقلى القائد الفاطمى — القاهرة (٣٥٨هـ — ٩٦٩م) ، ثم الجامع الأزهر بأمر مولاه المعز لدين الله فى عام ٩٧٢ م حادثا له أهميته ليس بالنسبة لمصر وحدها ، بل للعالم الإسلامى برمته . وقد ظل الأزهر محل رعاية الفواطم وخاصة على أيام العزيز بالله ، إذ جعل منه جامعة إسلامية للعالم الإسلامى كله ، ولاسيما بعد ما اجتاح المغول بغداد فى عام ١٢٥٨ . وظلت القاهرة قرنين من الزمان (٩٦٩ — ١١٧١) عاصمة لهذه الدولة العظيمة حتى تولى شئون مصر

صلاح الدين الأيوبى فنهضت أسرته (١١٧١ — ١٢٥٠م) بالكفاح ضد الصليبيين فى جهود متواصلة ، وكان حكمها قد امتد إلى الشام واليمن ، فلم يبق للخليفة العباسى سوى ظل ضئيل من سلطان الخلفاء .

أخذت مصر تقوم بجهودها فى تأدية رسالتها الحضارية ، وساعدها على ذلك أنها تقع فى مركز متوسط بالنسبة للشعوب الإسلامية، فقد أعدت لتكون موطن الحركات الإسلامية وموجهة لأنواع النشاطات الفكرية . وكما كانت أيام الإغريق والنصرانية ملتقى الجمع بين الثقافتين الغربية والشرقية فصهرتهما لتتكون منهما ثقافة وحدة لها قوتها وحيويتها ومعنوياتها ، كان لزاما أن تقوم بذات الدور بين ثقافتى الغرب والشرق ومدنيتهما ولا سيما فى أعقاب النضال العربى الصليبى ، كما نلاحظ إلى اليوم أن مصر لا تزال تؤدى الدور ذاته . والواقع أن مصر أسهمت أيضا من دم أهلها وفكرها بنصيب له أهميته فيما تيسر للعالم العربى إدراكه والوصول إليه.

وبالرغم من انشغال الأيوبيين فى الجهاد ضد الصليبيين طوال حكمهم فى حروب مريرة بالشام وفلسطين ومصر أيضا ، فقد أسهموا كذلك فى كثير من النواحى الثقافية التى سنوضحها فيما بعد . ومع ذلك فقد سقطت الدولة الأيوبية عندما أسست السلطانة شجرة الدر أرملة السلطان نجم الدين أيوب دولة جديدة عرفت باسم دولة المماليك البحرية (١٢٥٠) ، تلك الدولة التى أسهمت بالانتصار فى معركة المنصورة ، ثم قضى السلطان الظاهر بيبرس[١] على جحافل المغول فى معركة عين جالوت (١٢٦٠) . وفى أيام هؤلاء ازدهرت القاهرة بطائفة من العلماء فى جميع حقول المعرفة وارتقت فنون القاهرة إلى أسمى ما وصلت إليه من الروعة والجمال.

وخلف هؤلاء ، سلاطين المماليك الشراكسة الذين استمر سلطانهم إلى عام ١٥١٧ ، وهؤلاء بالرغم عن عيوبهم فقد أفلحوا فى إقامة دولة إسلامية عظمى فى الشرق الوسيط ، وتشييدهم العمائر الجميلة التى ما زالت تزين القاهرة فى القرن العشرين . ثم جاءت نهايتهم على يد السلطان سليم الأول العثمانى فهزمهم فى معركة مرج دابق عام ١٥١٧ .

وسننتقل بعد هذا الموجز التاريخى إلى الجانب الحضارى الذى أسهمت فيه مصر الإسلامية ، وخاصة القاهرة .

---

(١) يعتبر غالبية المؤرخين الظاهر بيبرس مؤسس دولة المماليك الأولى فى مصر .

المقالة الأولى

الحضارة فى أيام الطولونيين

الشافعى وذو النون :

أصبحت مصر منذ دخول العرب إليها مركزا علمياً فى الدولة الإسلامية ، كما هى مركز سياسى خطير . وكانت الدراسات الإسلامية آنذاك هى المجال الفريد للجهود الفكرية ، ولم يمض زمن طويل حتى أصبح بين المصريين علماء فى الدين ، وكان من أقدم علماء الحديث عبد الله بن وهب المصرى صاحب كتاب « الجامع فى الحديث » . ونذكر ممن نبغوا فى علوم الدين فى المدرسة المصرية فى فجر الإسلام أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة (ح ٩٧ هـ — ٧١٢م — ١٧٤ هـ — ٧٩٠)، والليث بن سعد بن عبد الرحمن المصرى المولد (٩٤ هـ — ٨١٢ م — ١٧٥هـ — ٧٩١) كان ثقة ، كثير الحديث واشتغل بالفتوى . وكذلك وفد الإمام الشافعى على مصر ، وأخذ عنه المصريون طريقته فى المناظرات الفقهية والكتابات العلمية ثم تأثر بمصر وكون مذهبه الجديد فيها وقويت مدرسته .

والمعروف أن الشافعى أقام فى مصر خمس سنين وتسعة أشهر يعلم الناس العلم ويؤلف كتبه الجديدة وينشر مذهبه حتى اشتد عليه المرض فتوفى عام ٢٠٤ هـ — ٨١٩ م .

وكان مركز الحركة العلمية الدينية فى مصر ، وقلبها النابض فى ذلك العهد الإسلامى الأول، جامع عمرو بن العاص ، فكان ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة ، وإليه يلجأ الناس للاستفتاء ، وإليه يفد الطلاب لتلقى العلوم التى كانت تدرس فى ذلك الحين ، وفيه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء .

كان لمصر سبق ملحوظ فى حقل التصوف الإسلامى ، فظهر أبو الفضل ثوبان ابن ابراهيم المصرى المعروف بذى النون ، فكان أوحد زمانه علماً وورعاً وأدباً وزهدا . وهو من أقطاب الصوفية وله فضل كبير فى وضع كثير من التعاليم

الصوفية . ولد ذو النون بأخميم حوالى عام ١٨٠ هـ - ٧٤٦ م ، ثم سافر إلى مكة ودمشق وزار بعض النساك . وقد تحدث ذو النون عن أسفاره ، فقال : « لقد حصلت فى أول أسفارى علماً يرضى الخاصة والعامة ، وحصلت فى ثانيها علماً يرضى الخاصة دون العامة . وفى ثالث أسفارى حصلت من العلم ما لم ترضى به لا الخاصة ولا العامة فغدوت شريدا طريدا . لقد حصلت من العلم فى المرة الأولى التوبة ، وهى مقبولة لدى الخاصة والعامة على حد سواء ، وفى المرة الثانية وصلت إلى التوكل على الله ومعاملته ومحبته وهى شئون تتقبلها الخاصة ولا تفهمها العامة وفى المرة الثالثة وصلت إلى الحقيقة التى تسمو على العلم والعقل ، فأعرضا عنها ولم يتفهماها(١)

اضطهد ذو النون من أجل تدريسه الصوفية علانية حتى قبض عليه فى أواخر أيامه وأرسل إلى بغداد حيث سجن ، ثم أعفى عنه بأمر من الخليفة فعاد إلى مصر حيث وافاه الأجل المحتوم بمدينة الجيزة فى عام ٢٤٥ هـ — ٨٥٩ م .

الطب والرياضيات فى أيام الطولونيين

أحمد بن الداية :

تقابلنا فى العصر الطولونى بشائر حركة علمية طيبة ، فنلتقى بأحمد بن يوسف ابن ابراهيم المعروف بابن الداية وهو يمثل بحق الخطوات التى قطعتها الدراسات التاريخية فى العصر الطولونى . ألف كتباً فى سيرة ابن طولون وسيرة أبى الجيش ، وكتاب المكافأة الذى يتمثل فيه طابع العصر ، عصر الترجمة والنقل من المعارف القديمة على نطاق واسع ، وكتاب « أخبار الأطباء » (ياقوت الرومى فى طبقات الأدباء) .

ويتسم هذا الكتاب وكتبه الأخرى بثقافة واسعة ، فهو كاتب ، وهو شاعر

(١) مرجريت سميث : ذوالنون المصرى « مجلة الأدب والفن » عدد ٣ ، ص ٥٤-٦٣ السنة الأولى عام ١٩٤٣ .

وهو عالم بالهندسة والفلك ، ثم هو ذو نظر ثاقب نافذ يغوص فى صميم المجتمع المصرى ، وقد أتاح له اتصاله بالأمراء الطولونيين ورجال الدولة والكتاب والفلاحين خبرات اجتماعية واسعة المدى صورت فى كتاب المكافأة . وفى هذا الكتاب إشارات إلى انتفاع ابن الداية بالمعرفة الإغريقية وإفادته منها ، وهو على الخصوص مغرم بأفلاطون معجب بسيرته ويقتبس من حكمه (١) .

عاش ابن الداية فيما بين ٨٦٨ و ٩٠٥ م (فى قول آخر ٩٤٢ م) وعمل عدة سنوات كاتم سر لعدة أمراء من آل طولون ، ضرب بسهم وافر فى علم الحساب وألف كتاباً عن العقود المتماثلة (De similibus Archubus) ، وآخر عن النسب ، ويعتبر هذا الأخير من المراجع التى كان لها الأثر فى الفكر خلال العصور الوسطى ، ويرجع الفضل إلى العلامة ليوناردو البيزى (من بيزا) ، وجوردانوس يموراربوس فى تعريفه إلى الغرب .

وذكر ابن الداية فى كتابه المكافأة بأنه صحب رجلا من المسلمين الذين اشتغلوا بالطب واسمه على المتطبب المعروف بالدّيدان، وأن هذا الطبيب كان حسن المعرفة بكتب أفلاطون ورموزه ومبرزا فى الطب .

ويبدو أن صناعة الطب فى مصر قد أفادت من تقاليد مدرسة الاسكندرية القديمة ، ومن حسن الحظ أن البلوى (٢) فى حديثه عن أيام ابن طولون الأخيرة ومرضه وخلافه مع أطبائه أمدنا باخبار عن صناعة الطب فى مصر ، وقد يتبين منها أنها لم تعد وقفا على غير المسلمين . وصحيح أن سعيد بن ثيوفيل (٣) كان طبيب ابن طولون المفضل فاجزل له العطاء وأنه كان حاذقا فى صناعته ، إلا أنه يتبين مما ذكره البلوى أن هذا العلم شاع بين المسلمين وهو يشير إلى طبيب يسمى الحسن بن زيرك اشترك فى علاج ابن طولون . وقد شاعت صناعة الطب فى مصر فى ذلك العصر وكثر المشتغلون بها (٤).

(١) المكافأة : ص ١٠٤ ، القاهرة ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ .

(٢) سيرة ابن طولون : حققها محمد كرد على ص ٣١٩ — ٣٢٣ ، دمشق ١٣٥٨ هـ .

(٣) توفى سعيد عام ٨٩٢ .

(٤) سيدة اسماعيل كاشف وحسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين والاخشيديين ص ١٢٢ — ١٢٣ .

سعيد بن البطريق :

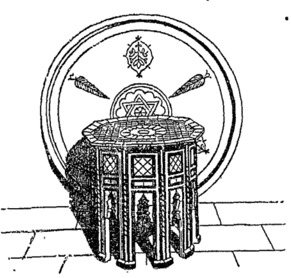
ويقابلنا من الأطباء النصارى الشقيقين عيسى بن البطريق الذى ازدهر فى النصف الأول من المائة العاشرة ، وسعيد بن البطريق وكان طبيباً عارفاً بصناعة الطب ، علماً وعملا ، ممتازاً فى جزئيات المداواة والعلاج ، بارعاً فيها وكان مقامه بمدينة مصر القديمة .

كان سعيد بن البطريق (ت ٩٣٩ م) نابغة وإمام عصره ، وهو من أهل الفسطاط، وكان طبيباً ماهراً فى صناعةالطب نظرياً وعملياً ، واشتهر أيضاً مؤرخاً فقد ألف « نظم الجواهر » . ولد سنة ست وسبعين وثمانمائة ، ولما كانت سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، نصب بطريركا على الاسكندرية ، وسمى أوتوشيوس (أوتيخا) وله من العمر نحو ستين سنة . له مصنف طبي ، وكتاب الكناش فى الأدوية المفردة والمركبة، وقد عثر الأب بولس سباط على نسختين منه، الواحدة بحلب والأخرى بالقاهرة .

والمعروف أن كتاب « نظم الجواهر » الذى ألفه لأخيه عيسى طبع فى أكسفورد سنة ١٨٥٦ مع ترجمته إلى اللغة اللاتينية بهمة العلامة الإنجليزى إدوارد پوكوك Pocock ثم نشرته المطبعة الكاثوليكية فى بيروت سنة ١٩٠٦ .

نسطاس :

وممن ازدهروا فى الطب فى أيام محمد بن طغج الإخشيد ، الطبيب النصرانى نسطاس . له رسالة فى البول كتبها إلى زيد بن رومان الأندلسى النصرانى، وله أيضاً «كناش فى الطب» .



البيمارستان الطولونى

أنشأ أحمد بن طولون بيمارستاناً فى سنة ٢٥٩ هـ / ٨٧٢ م فى الفسطاط ، وأنفق عليه ستين ألف دينار ، ولم يكن قبل إنشائه بيمارستان بمصر(١) وقد شيد حمامين لهذا البيمارستان ، أحدهما للرجال والآخر للنساء ، وذكر المقريزى(٢) أن ابن طولون شرط أنه إذا جئ بالمريض تنزع ثيابه ويؤخذ ما معه من المال وتحفظ عند أمين البيمارستان ثم يلبس ثياباً ويفرش له ويغدى عليه ويراح بالأدوية والأغذية والأدوية حتى يبرأ . فإذا ما أكل فروجا ورغيفا أمر بالانصراف وأعطى ماله وثيابه . وكان بهذا المستشفى خزانة كتب قيمة فى سائر العلوم . وكان من بين أطباء هذا البيمارستان محمد بن عبدون الأندلسى وسعيد بن ثوفيل(٣)، وشمس الدين محمد بن عبد الله المصرى . وقد أصاب هذا البيمارستان الخراب بعد زوال الدولة الطولونية . وعلى كل حال فقد كان هذا البيمارستان قائما وشاهده المؤرخ المصرى القلقشندى (ت ١٤١٨) . والمعروف أن كافور الإخشيدى بنى بيمارستانا آخر(٤) .

وننتقل بعد ذلك إلى عالم الرياضيات الذى لمع اسمه فى أخريات المرحلة الطولونية ولم تذكر عنه المراجع العربية ما يزيل بعض الغموض المحيط بتاريخ حياته وهو:

شجاع بن أسلم المصرى (أبو كامل) :

ذكر عنه ابن القفطى فى كتابه أخبار العلماء بأخبار الحكماء عبارة موجزة وهى :

---

(١) أشار المقريزى إلى بيمارستان فى حى المعافر بالفسطاط ، شيد فى عهد المتوكل على الله الذى توفى سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م . وذلك قبل إقدام أحمد بن طولون على بناء بيمارستانه ، كما أشار ابن دقماق إلى بيمارستان آخر كان فى شارع القناديل بالفسطاط .

(٢) الخطط ، جـ ٤ ، ص ٢٥٩ . انظر أيضا الدكتور التجانى الماحى : مقدمة فى تاريخ الطب العربى ، ص ١٤٦ — ١٤٧ .

(٣) كان من أطباء أحمد بن طولون ولما لم يفلح فى علاجه ذات مرة ضربه بالسياط حتى مات ثم استدعى طبيبا آخر اسمه الحسن بن زيرك .

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ ٣ ص ٣٣٧ .

« وكان فاضل وقته وعالم زمانه وحاسب أوانه وله تلاميذ تخرجوا بعلمه ». علامة بالحساب وهو مصرى ظهر بين ٨٥٠ م و ٩٣٠ م على أيام الطولونيين وصلت إلينا أهم أعماله مترجمة إلى اللغتين اللاتينية والعبرية . ولقد استفاد منها ليوناردو البيزى (نسبة إلى بيزا) ، ومن تلك المؤلفات : كتاب الجمع والتفريق (القسمة) وهو كتاب يبحث فى قواعد الأعمال الأربعة ولا سيما فيما يتعلق بالجمع والطرح . وله أيضا « كتاب الوصايا بالجبر والمقابلة » الذى قال فيه مؤلفه :

« ألفت كتابا معروفا بكمال الجبر وتمامه والزيادة فى أصوله ، وأقمت الحجة فى كتابى الثانى بالتقدمة فى السبق والجبر والمقابلة لمحمد بن موسى الخوارزمى والرد على المحترف المعروف « بأبى بردة » ولما بينت تقصيره وقلة معرفته بما ينسب إلى جده ، رأيت أن أؤلف كتابا فى الوصايا بالجبر والمقابلة » . وله أيضا « كتاب الوصايا بالجذور » .

و «كتاب الشامل» وقد يكون هذا الكتاب هو بعينه «كتاب الجبر والمقابلة»[1] وله « كتاب الكفاية » ، و « كتاب مفتاح الفلاح » .

وقد أوضح بن أسلم فى مؤلفاته مسائل كثيرة حلها بطريقة مبتكرة لم يسبق إليها . واشتهر هذا العلامة المصرى أيضا برسالته فى المخمس والمعشر ، وكذلك بكتبه فى الجبر والحساب . وأكد كاربنسكى بان شجاع كان المرجع لبعض علماء القرن الثالث عشر .

عمارة بن سويد :

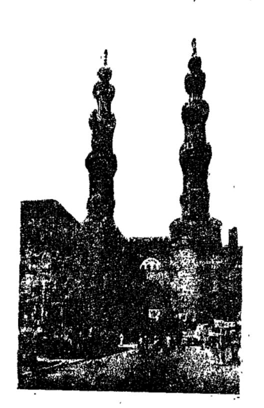
وهذا عالم من أخميم[1] بالصعيد (بنابوليس) ، عرف كيميائيا وعاش حوالى عام ٩٠٠ م ، ونسبت إليه مصنفات شتى .

---

(١) قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، ص ١٣٣ — ١٣٥ .

سوق الورق والكتب :

ونختم الكلام عن المجتمع العلمى أيام الطولونيين والاخشيديين ، بأنه كان فى أيامهم فى الفسطاط سوق عظيمة للوراقين تعرض فيها الكتب للبيع وأحيانا تدور فى دكاكينها المناظرات ، وقد كان سوق الكتب هنا تجاه الجانب الشرقى من جامع عمرو بن العاص . أما سوق الكتبيين بالقاهرة ، فقد كان بين الصاغة والمدرسة الصالحية (الصالح نجم الدين أيوب) ، وقد أحدث حوالى ٧٠٠ هـ — ١٣٠٠ أو بعد ذلك كما ذكر المقريزى فى خططه (ج ٢ ص ١٠٢) وكان على أيامه مجمعا لأهل العلم يترددون عليه . ولم يكن بائعوا الكتب مجرد تجار وإنما كانوا غالبا أدباء ذوى ثقافة يسعون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة التى كانت تتيح لهم المطالعة وتجذب لدكاكينهم العلماء والأدباء .



باب زويلة

(١) كانت لهذه البلدة قبل انتشار الإسلام شهرة فى مصر وعرفت بتقاليدها العلمية ، وكان كثير من أهلها ملمين باللغات الإغريقية والقبطية والعربية .

المقالة الثانية

الحضارة فى أيام الفاطميين

بلغت مصر ذروة سامية فى حضارة العصور الوسطى على أيام الفاطميين ، فارتقت فيها العلوم والفنون والآداب والعمارة ، وفى ذلك العصر لمعت فيها أسماء طائفة من العلماء والمؤرخين والأدباء والأطباء والحكماء ، وأخذ الأزهر ودار الحكمة يجدان فى الدراسات ونشر ألوان المعارف عن طريق الندوات والحلقات والمناظرات .

وإذا كانت المساجد قامت بجهود مشكورة فى تاريخ المسلمين وحضارتهم ، فإن الأزهر منذ تأسيسه (٩٧٢) فى القاهرة قام بواجب رئيسى ، ليس فى تاريخ مصر فحسب ، بل فى تاريخ الأمم العربية والشعوب الإسلامية على مر العصور . فقد نهض الأزهر الشريف فى أثناء مراحله المتعاقبة برسالته الدينية والعلمية ، وبعث أضواء العلم فى أقطار المعمورة ، كما كان العامل الوحيد على الحفاظ على اللغة العربية والثقافة الإسلامية فى عصر التدهور والانحطاط ، كما كان للأزهر أدواراً روحية خالدة قاوم فيها شتى تيارات الإلحاد والانحرافات والمذاهب الهدامة .

لهذا ، كان الأزهر جامعة يقصدها طلاب العلوم الدينية واللغة العربية والثقافات الإسلامية من شتى أنحاء العالم ، كما كان مصدر الدعوة الإسلامية إلى مختلف الشعوب . وهو إلى اليوم ما زال ملتقى آلاف الطلاب من أنحاء العالم ، كما أنه مصدر مئات العلماء إلى مختلف القارات للتدريس والإرشاد ، ولا سيما بعد ما خرب المغول بغداد ، ودمروا مدارسها فى عام ١٢٥٨ ، فازدحمت أروقة الأزهر بالطلاب من السودان وسورية والعراق والمغرب والجزيرة العربية وبلاد الترك والصين والهند والملايو . وكان للأزهر الفضل فيما وصل إليه كثير من أفاضل العلماء فى الشهرة ، نذكر منهم على سبيل المثال ، وليس على سبيل الحصر : أبو عبد الله القضاعى (ت ٤٥٤ هـ — ١٠٦٢ م) الفقيه والمؤرخ ، وكان أستاذاً بالأزهر ، وعبد الوهاب الشعرانى المتصوف الجليل (ت ٩٧٣) وأحمد الدردير الذى اشتغل

بالتدريس فى الأزهر وألف عدة كتب فى الفقه ، ورفاعة رافع الطهطاوى (ت ١٨٧٣) ، حامل لواء الثقافة الحديثة فى مصر ومبعوث الأزهر الأول إلى معاهد أوربا ، والشيخ محمد عبده (ت ١٩٠٥) المصلح الدينى الكبير ، والشيخ عبد العزيز جاويش (ت ١٩٢٩) ، والدكتور طه حسين أطال الله حياته .

أسهم أساتذة الأزهر وتلاميذه فى كثير من الأحداث السياسية التى مرت بالبلاد ، وهنا نذكر الدور الكبير الذى نهضوا به فى مقاومة الاحتلال الفرنسى (١٧٩٨ — ١٨٠١) ، فقد قادوا الحركة الوطنية ضد المحتلين الغاصبين بالرغم من حوادث التشريد والمحاكمة والنفى والإرهاب حتى طردوهم من أرض الوطن . . ومرة أخرى يقوم هؤلاء العلماء بحمل لواء الوطنية وإرشاد الشعب ، حينما نهض سعد زغلول (١٩١٩) ينادى باستقلال مصر وبحريتها وبجلاء القوات البريطانية من وادى النيل ، ثم جاءت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فأجلتها نهائيا عن الوطن .

والأزهر اليوم مكتبة كبرى جليلة كأية جامعة ، تحتوى على نفائس المخطوطات والمطبوعات وقد أنشئت فى عام ١٨٧٩ بعد أن كانت مشتتة فى الأروقة الكثيرة والمساجد العديدة ، وكان عدد كتبها فى أول الأمر لا يزيد على ٧٧١٠ كتاب . وفى أوائل هذا القرن وصل هذا الرقم حوالى ٣٦٦٤٢ منها ١٠٩٣٢ من المخطوطات العربية والشرقية النادرة . وتقدر الآن مجموعة المحتويات بقرابة ٦٦٦٤٢ مجلدا .

دار الحكمة بالقاهرة

أسس الفاطميون فى القاهرة عام ٣٩٥ هـ — ١٠٠٤ م دار الحكمة ، وجعلوا فيها مكتبة كبيرة وضعوا فيها آلاف الكتب المنوعة النادرة العزيزة المنال والتى امتازت بجودة الخط وجمال التجليد ودقة الزخارف وهى فى شتى العلوم والمعارف فى الفقه والنحو واللغة والحديث والتاريخ والنجوم والكيمياء والفلسفة والطب وغيرها ، من كل كتاب عدة نسخ . وفيها المصاحف المذهبة بالخطوط المنسوبة كخط بن مقلة وابن البواب وغيرهما من مشاهير الخطاطين . وقد نقل الحاكم بأمر الله إليها الكثير من كتب قصره ومن خزائن قصور الأمراء مايقدر بستمائة ألف مجلد ، وقد بلغ عدد كتب دار الحكمة بعد هذا — مليون وستمائة ألف مجلد ولم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم منها .

وكان الحاكم بأمر الله يشرف بنفسه على الحركة العلمية التى كانت فى دار الحكمة وتجرى بحضرته المناظرات والندوات الدينية والعلمية .

وسار الخلفاء الفاطميون على طريقة الحاكم ، فضاعفوا أوقافها وصرفوا عليها بسخاء . وذكر المقريزى أن ما كان ينفق عليها ٣٥٧ ديناراً فى السنة ، ولعل هذا المبلغ هو الذى كان يصرف عليها فى أواخر أيامها .

وكانت دار الحكمة من أهم المراكز التى قامت بنشر مذهب الشيعة الفاطمى فى شمال أفريقيا والشام وبلاد الجزيرة ، وتخرج منها أعلام المذهب ومجتهدوه الذين خدموا الفواطم وامدوا المكتبة الفاطمية بشتى كتب الفقه والعلم التى تعزز مذهبهم وتدعمه .

بقيت الدار عامرة بمجالسها العلمية حتى عام ١٠٦٨ م . فأصابتها نكبة طوحت بكثير من كتبها النفيسة . وذلك أن الخليفة المستنصر بالله (١٠٢٥ — ١٠٩٤م) كان ضعيفا ، فأهمل أمور البلاد ، فثار عليه الجيش بقيادة ابن حمدان عام ١٠٦٨ وأجبره على بيع كنوزه ومتاع قصوره لسد حاجتهم ، وامتدت أيدى الجيش إلى خزانة كتب دار الحكمة ، فاقتسم القادة المصاحف المحلاة بالذهب والفضة . ثم فرقوا كتب دار الحكمة وحملوا منها عدة أحمال إلى الأسكندرية وبينما كانت فى الطريق سطا عليها بعض العربان وأحرقوا ورقها وانتزعوا جلودها النفيسة ، وهكذا تبدد قسم كبير من نفائس الكتب (١) .

وفى عام ١١٢٢ م أغلقت الدار وظلت مهملة حتى تولى الحكم الخليفة الآمر بأحكام الله (١١٠١ — ١١٢٩م) . فرأى بناء على نصيحة وزيره المأمون البطائحى أن تشيد دار أخرى ، عرفت بدار العلم الجديدة . ويقال أن نفقة بنائها بلغت مائة ألف دينار، وفتحت الدار الجديدة فى ربيع الأول سنة ٥١٧ هـ — ١١٢٣م وعاد الانتفاع بها كما كانت . وقد استمرت عامرة بمجالسها العلمية إلى انتهاء دولة الفاطميين (١١٧١) . ولما استولى صلاح الدين الأيوبى على الحكم هدم دار الحكمة ، وأسس مكانها مدرسة للشافعية ، ونقل القاضى الفاضل عبد الرحيم

---

(١) سعيد الديوجى : بيت الحكمة ، ص ٥٥ — ٦٠ ، الموصل .

البيسانى ما يقارب مائة ألف مجلد إلى مدرسته الفاضلية التى شيدها بدرب ملوخية بجوار داره سنة ٥٨٠ هـ — ١١٨٤ ووقفها على فقهاء الشافعية والمالكية . كان يقتنى لهذه المدرسة الكتب من كل علم وفن ، وكان بها نساخ يواصلون العمل دون كلل ، قيل أن عدد ما كان بها من الكتب مائة ألف وأربعة وعشرين ألف مجلد ، اشترى معظمها مما تخلف من مكتبات الفاطميين . وكأن القدر كان واقفاً بالمرصاد لهذه المكتبة النفيسة ، فإنه حين وقع الغلاء بمصر عام ٦٩٤هـ — ١٢٩٥ والسلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصورى ، أخذ الطلاب الذين يترددون عليها يبيعون كل مجلد برغيف خبز حتى فقد معظم ما فيها من الكتب ، ثم أخذ الفقهاء يجذون حذوهم فتفرقت جميع الكتب .

الطب فى أيام الفاطميين

أحمد بن محمد البلوى :

ازدهر الطب فى أيام الفواطم ، ولمعت أسماء كثير من الأطباء المسلمين والنصارى واليهود . نذكر بين هؤلاء : الطبيب المؤلف أحمد بن محمد البلوى الذى عاش فى القاهرة ومات حوالى ٩٩٠ / ٩١ م . وهو مؤلف رسالة تناول فيها صحة الحوامل والعناية بالأطفال اسمه « كتاب تدبير الحبالى والأطفال » . وكان من معاصريه الطبيب الصيدلى ماسويه الماردينى (ت ١٠١٥م) الذى اشتهر فى بغداد وعاش فى أيام الحاكم بأمر الله . وكان من مؤلفاته رسالة تناول المسهلات والملينات وذكر فيها علاج عدد يذكر من الأمراض ، ووسائل معالجة كل منها . ولعل أهم ما صنفه الماردينى كتابه الكامل فى العقاقير « فارما كوبيا » ، وقد ظل يعمل بهذا الكتاب كمرجع هام فى الصيدلة عدة قرون متواصلة فى الغرب ، واسمه باللاتينية : (Antid otarium siue Grobadin medicanevt orum)

وليس هذا محل دهشة ، فقد اشتغل العرب بالصيدلة وهم واضعوا أسس هذا العلم ، كما أنهم أول من أسسوا مدارس الصيدلة ووضعوا التآليف الممتعة فى هذا الحقل (١) واستنبطوا أنواعاً كثيرة من العقاقير . يدلنا على ذلك أسماؤها التى وضعها العرب والتى لا تزال على وضعها عند الغربيين .

---

(١) Sarton : Introduction to The History of Seience. vol 1. .p28.

محمد بن سعيد التميمي

ومن أطباء هذا العصر « أبوعبد الله بن سعيد التميمي المقدسي » . ولد بالقدس وجاء إلى مصر عام ٩٧٠ واستقر بها عدة سنين حتى توفى . أجرى تجارب كثيرة فى العقاقير والصيدلة وصنف عدة كتب فى الطب وفى تركيب أدوية العلاج . ومن أهم أعماله : « المرشد » الذى يحتوى على معلومات نفيسة عن النبات والمعادن .. الخ . واسمه الكامل « المرشد إلى جواهر الأغذية وقوى المفردات »(١)، توجد منه قطعة تبلغ النصف بمكتبة باريس (٢) . صنف للوزير يعقوب بن كلس وزير المعز والعزيز . وصنف له كتابا سماه : « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء » . ولقد لقى أطباء مصر ، واختلط بالأطباء القادمين من أهل المغرب فى صحبة المعز لدين الله عند قدومه ، والمقيمين بمصر من أهلها ، وكان التميمي موجودا بمصر سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) ، ونذكر من مؤلفاته الأخرى :

١ — رسالة فى صنعة الترياق الفاروقى والتنبيه على ما يغلط فيه من أدوية ونعت أشجاره الصحيحة وأوقات جمعها وكيفية عجنه وذكر منافعه وتجربته .

٢ — مقالة فى ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه .

٣ — كتاب الفحص والأخبار .

٤ — كتاب المرشد الذى ذكرناه وهو كتاب عظيم النفع توجد منه قطعة تبلغ النصف بمكتبة باريس الوطنيه .

موسى بن العازار :

كان من أطباء المعز لدين الله وهو الطبيب الإسرائيلى موسى بن العازار . كتب له اقرباذينا ، وكان عالماً بصناعة العلاج وتركيب الأدوية وطبائع المفردات ،

---

(١) المقتطف مقال الدكتور فيليب حتى فى مجلة المقتطف : فبراير ١٩٣٥ ، أنظر أيضاً جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى — جـ ٤ ص ١٨٥

(٢) تكلم عنه ليكلرك (جـ ٢ ص ٣٨٩)

وهو مؤلف شراب الأصول . ذكر أنه يفتح السدد ويحلل الرياح الشراسيفية والأمغاص العارضة للنساء عند حضور طمثهن ، وينقى الرحم من الفضول المانعة لها من قبول النقطة ومن الأخلاط اللزجة التى تكون سبب إسقاط الأجنة وينفع الكلى والمثانة وينقيهما من الفضول الغليظة ويحل الماء الأصفر من البطن ويخرجه بالبول . ومما ركب موسى بن العازار (العيزار) للمعز شراب التمرهندى واشترط فيه شروطاً كثيرة من النفع(١) .

على بن سليمان :

طبيب عاصر ثلاثة خلفاء فاطميين ، هم العزيز بالله بن المعز ، والحاكم بأمر الله ، والظاهر. تميز فى الطب والرياضيات وأحكام النجوم وله تصانيف شتى، منها كتاب الحاوى فى الطب وكتاب الأمثلة والتجارب ، وكتاب الخواص الطبية المنتزعة من كتب أبقراط وجالينوس وغيرهما ، وكتاب التعاليق الفلسفية وغيرها (٢) .

أبو القاسم عمار بن على :

ننتقل بعد ذلك إلى التحدث عن أبى القاسم عمار بن على الكحال (طبيب العيون) . ومع أنه من أصل عراقى ، إلا أنه قد عمل طبيباً للعيون فى القاهرة فى أثناء حكم الحاكم بأمر الله (حكم ٩٩٦ — ١٠٢٠ م) . يعتبره العلماء فى طليعة الكحالين فى العالم الإسلامى ، بيد أن مؤلفات معاصره الكحال على بن عيسى كانت أشمل ، فأسدلت الستار على كتابات عمار . ونذكر منها : « كتاب المنتخب فى علاج العين » الذى يذكر فيه عدة وصفات واضحة لأمراض العين وطرق علاجها . والواقع أن الجزء العملى من هذا الكتاب وهو الخاص بالجراحة لهام جداً ، إذ تناول فيه إجراء ست عمليات ماء العين (كاتاركت) واحداها عملية لماء العين اللينة للامتصاص بوساطة أنبوبة معدنية مجوفة اخترعها عمار بذاته . وقام ناثام معطى بترجمة كتاب المنتخب إلى العبرية فى أثناء إقامته بروما

---

(١) القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء (ط . السعادة) ص ٢١٠ — ٢١١ وانظر ابن أصيبعة ج ٢ ص ٨٦

(٢) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ، ج ٢ ص ٩٠

فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، ثم صدرت طبعة بالألمانية فى جزئين اشترك فى عملها العلماء : هوشبرج ، وليبرت ، وميتفوخة فى عام ١٩٠٥ بعنوان :

فن طب العيون العربى عن مرجعه الأصلى : Die arabisshen Augenaizte nach den Quellen barbitet.

وجدير بالذكر أن المخطوط الأصلى لكتاب بن عمار محفوظ فى مكتبة الاسكوريال بأسبانيا .

على بن رضوان بن على :

طبيب يعتبر من أقدم الأطباء المصريين الذين عرفتهم مصر الاسلامية (١) . ولد بالجيزة حوالى عام ٩٨٠ م وتوفى قرابة ١٠٦١ م . كان أبوه فرانا ولاقى فى تعليمه أهوالا حتى برع فى الطب بعد ما استوعب معظم كتب الأقدمين الذين سبقوه فى هذا العلم ، وعمل رئيساً الأطباء بالقاهرة فى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى ، وعلى أيام خليفتين آخرين .. هما الظاهر والمستنصر بالله . وقد انتقد كاتبو سيرة ابن رضوان هذا العلامة ، لأنه لم يتعلم الطب عن أحد مشاهير أساتذة الطب ، وأنه اعتمد فى ذلك على تعليم نفسه ، وعلى العكس من ذلك نجد ابن رضوان يفخر بذلك فى سيرة حياته التى كتبها حوالى عام ١٠٥٠ ، ولابن رضوان ما يقرب من تسعين بحثاً فى الطب ، لعل أهمها ما نشره الدكتور ماكس مايرهوف ، وعنوانه «فى دفع مضار الأبدان بأرض مصر» . وهذا البحث ينقسم إلى خمسة عشر فصلا ومقدمة انتقد فيها الطبيب آراء التونسى أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار ، لاعتماده على ما سمعه فيما كتبه ولم يحقق فيما كتبه بنفسه . وسأنقل للقارئ رؤوس تلك الفصول لأهميتها .

١ — وصف مصر .
٢ — ما يختص بطقسها .
٣ — ذكر ستة أسباب تسبب الصحة والمرض فى مصر .
٤ — فصول السنة فى مصر .
٥ — أكثر ما ذكره ابن الجزار عن أسباب وخم هذه البلاد غير صحيح .

---

(١) ترجم جيراردو دى كريمونا إلى اللاتينية شرحه لكتاب جالينوس ، وعنوانه العربى شرح الصناعة الصغيرة لجالينوس .

٦ — عن القاهرة .

٧ — عن أسباب الطاعون .

٨ — عن الأسباب الستة المذكورة فى الفصل الثالث .

٩ — عرض عام عن تدبير الصحة والعلاج الطبي .

١٠ — ما الذى يجب على الطبيب عمله فى مصر .

١١ — وصف قواعد الحياة .

١٢ — عن تلطيف أضرار الهواء والماء والطعام فى مصر .

١٣ — عن منع الأسقام التى تسببها الأمراض المتفشية فى مصر .

١٤ — وصفات العلاج .

١٥ — قواعد صحية لأهالى مصر (١) .

ومما يذكر أن ابن رضوان تبادل مع زميله الطبيب العراقى المختار بن بطلان المساجلات والمناقشات الطبية والعلمية ، ولما طالت سافر بن بطلان من بغداد إلى مصر ليرى مناظره ، وأقام بها سنوات واستمرت بينهما المناظرات، ويقول ابن أصيبعة فى المقارنة بينهما : كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز فى الأدب وما يتعلق به. وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها .

أما مؤلفات ابن رضوان ، فقد ذكر ابن أبى أصيبعة (٢) مائة واثنتين بين كتاب ورسالة ومقال ، نذكر منها :

١ — شرح كتاب الفرق لجالينوس .

٢ — شرح كتاب الصناعة الصغيرة لجالينوس .

٣ — شرح كتاب النبض الصغير لجالينوس .

٤ — شرح كتاب جالينوس إلى أغلوقن .

٥ — شرح كتاب الأسطقسات لجالينوس .

---

(١) Max Meyerhof; Climate and Health in Old Cairo—according to Ali ibn Radwân, Cairo. Dec 1928.

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . ج ٢ ص ٩٩ — ١٠٥

٦ — كتاب الأصول فى الطب .

٧ — كتاب النافع فى كيفية تعليم صناعة الطب .

٨ — كتاب الانتصار لأرسطوطاليس .

٩ — تفسير ناموس الطب لأبقراط .

١٠ — كتاب فى حل شكوك الرازى .

١١ — رسالة إلى أطباء مصر والقاهرة فى خبر الطبيب ابن بطلان .

١٢ — رسالة فى الكون والفساد .

١٣ — كتاب فى الأدوية المفردة على حروف المعجم (١٢ مقال) .

١٤ — كتاب فى الرد على الرازى فى العلم الإلهى وإثبات الرسل .

١٥ — كتاب فيما ينبغى أن يكون فى حانوت الطبيب (٤ مقالات) .

١٦ — مقالة فى دفع المضار عن الأبدان فى مصر (وهى التى لخصنا محتوياتها).

سلامة بن رحمون أبو الخير :

طبيب مصرى يهودى ، قال أبو الصلت عنه : « وأنبه من رأيته منهم (يعنى أطباء مصر) وأدخلهم فى عداد الأطباء رجل من اليهود يدعى أبا الخير سلامة ابن رحمون فإنه لقى أبا الوفاء المبشر الحكيم (١) وأخــذ عنه شيئا من صناعة المنطق وتخصص به وتميز عن أضرابه ثم قرأ الطب ونصب نفسه لتدريس كتب المنطق وكتب الفلسفة الطبيعية والإلهية . وكان سلامة هذا موجودا فى حدود سنة ٥١٠ هـ (١١١٦ م) ، وهو الوقت الذى دخل فيه أبو الصلت إلى مصر .

أبو يعقوب اسحق بن ابراهيم :

طبيب الحاكم بأمر الله الخاص ، وقد أشار عليه مرة أثناء مرضه بأن يشرب النبيذ لبواعث صحية ، فنزل الحاكم على نصحه ، وجنح إلى ما يستتبعه الشراب من

---

(١) يأتى الحديث عنه فى الصفحة التالية .

مجالس السمر مدى حين . فلما توفى أبو يعقوب امتنع عن الشراب ومجالسه وعاد إلى زهده واشتد فى تحريم النبيذ (١) .

أبو الحسن سهلان بن عثمان :

من مشاهير أطباء العصر الفاطمى ، وكان عالماً وطبيبا حاذقا . تقدم عند الخلفاء الفواطم ، وعلا جاهه فى أيام العزيز بالله واقتنى المال الجزيل .

ولما توفى (٩٩٦ م) ، شيعت جنازته يوم الأحد بعد الظهر ، وبين يديه خمسون شمعة موقدة ، وعلى تابوته ثوب مثقل ، وخلف جنازته المطران أخو السيدة ، وأبو الفتح منصور بن مقشر طبيب الخليفة الخاص ، وسائر النصارى وصلى عليه فى كنيسة الروم بقصر الشمع طول الليل ، ثم أخرج إلى دير القصير ، ودفن هناك .

ولسهلان بن كيسان من التصانيف « كتاب فى الأقراباذين » كان مجهولا حتى عثر على نسخة منه الأب بولس سباط سنة ١٩٢٠ بحلب وذكره فى الفهرس (٢) .

وله مختصر فى الطب مجهول ، صنفه للخليفة العزيز بالله ، ليحفظ فى خزائن الملوك بمصر ، عثر عليه العلامة بولس سباط بالقاهرة عند الأسقف ايسذورس اليعقوبى الحمصى ، فاستنسخه وألقى فى شهر ديسمبر ١٩٤٣ محاضرة عليه فى المجمع العلمى المصرى ثم نشره فى مجلة المجمع فى السنة المذكورة . وله أيضا « مختصر فى الأدوية المركبة المستعملة فى أكثر الأمراض » (٣) وفق فى العثور عليه فى سبتمبر سنة ١٩٤٤ ونشره ضمن مطبوعات المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة .

وفى أخريات القرن العاشر أيضا لمع اسم الطبيب « أبو الفتح منصور بن سهلان » ، وأصبحت له عند الخليفة العزيز بالله منزلة ، ولما تولى الحاكم بأمر الله ابنه من بعد ، حافظ على تلك المكانة .

واشتهر فى العصر الفاطمى ، العلامة الطبيب يوسف البطريرك (ت ٩٨٤ م)

---

(١) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ـ ص ٨٧ . دار النشر الحديث . القاهرة .

(٢) Al - Fihris : Catalogue de Manuscrits Arabes

صدر فى ٣ أجزاء وملحق مطبعة الشرق . القاهرة ١٩٣٨ — ١٩٤٠

(٣) Deux Traités médicaux édidtés et traduit par R. P. Paul Sbath et Christo D. Avierinos Inst. F. A. O. Le Caire 1953.

وقد سمى بطريركا على القدس سنة ٩٨٠م ،وأقام فى الرياسة ثلاث سنين وثمانية أشهر ومات بمصر .

ابن مقشر :

لمع اسم الطبيب أبو الفتح منصور بن مقشر النصرانى وهو ابن أبى الفتح الذى تقدم ذكره ، وبلغ عند الحاكم بأمر الله منزلةسامية ونال منه العطايا الجزيلة. ولما اعتل فى عام ٣٨٥ هـ (٩٩٥) كتب إليه العزيز عندما تماثل للشفاء كتابا رقيقا يدل على مبلغ عناية العزيز بالله به ، ومات هذا الطبيب فى عصر الحاكم .

داود بن أبى البيان :

الطبيب الإسرائيلى وشهرته بعيدة فى الطب ، ذو علم واسع فى تشخيص العلة ووصف العلاج . ولد فى القاهرة فى سنة ١١٦١ . وله فى الأدوية المركبة كتاب اسمه «الدستور» ، جمعه مما اتضح نفعه بالاستعمال فى البيمارستان الناصرى بالقاهرة، وغيره من دور التداوى فى مصر والشام والعراق وحوانيت الصيادلة .

وكان ابن أبى البيان علما من أعلام صناعته فنية ذكره وعظم قدره حتى قال بعضهم فيه :

إذا أشكل الداء فى باطن ... أتى ابن بيان له بالبيان

فإن كنت ترغب فى صحة ... فخذ لسقامك منه الأمان

وقد وفق الأب بولس سباط فى العثور على هذا الكتاب فحققه ونشره فى مجلة المجمع العلمى المصرى[١] لخدم العلم به .

جاء فى مقدمة الدستور موجزا لمحتوياته ، قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فهذا دستور يشتمل على بيان الأدوية المركبة المستعملة فى أكثر الأمراض المقتصر عليها فى البيمارستان الناصرى بالقاهرة ، وهى التى أكثر الأطباء استعمالها ، فعرف نفعها ، واشتهر ذكرها ، مما عنى بجمعه داود بن أبى البيان المتطبب[٢] ، وهو إثنا عشر بابا :

---

(١) Bull. de L'Institut, D'Egypte T. xv 1932—1933

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ٢ ص ١١٨ و ١١٩ ، المطبعة الوهبية سنة ١٨٨٢ .

الباب الأول فى المعاجين والأطريفلات (جميع أطريفيل وهو المعجون).
الباب الثانى فى الجوارشنات (هاضمة الطعام) .
الباب الثالث فى الحبوب والأبارجات والمطبوخات .
الباب الرابع فى الأقراص والسفوفات .
الباب الخامس فى الأشربة والمربيات واللعوقيات والربويات .
الباب السادس فى الغراغر والسعوطات .
الباب السابع فى الأكحال والشيافات .
للباب الثامن فى الحقن والفتائل والفرزجات .
الباب التاسع فى الأطلية والضمادات .
الباب العاشر فى الأدهان والنطولات .
الباب الحادى عشر فى أدوية الفم والسفوفات .
الباب الثانى عشر فى المراهم وأدوية النواسير والخراجات .

ماسويه المارديني :

صيدلى اشتهر فى بغداد وعاش فى القاهرة فى أثناء العصر الفاطمى وتوفى عام ١٠١٥ م[١] ، ومن أهم مؤلفاته كتاب كامل فى « العقاقير » من اثنى عشر جزءا عرف فى اللاتينية بعنوان :

Aatidotarium sive grabadin medicamentorum compositorum.

وقد اكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة فى أوربا اللاتينية واستمر قروناً عديدة الكتاب المدرسى الأول فى الصيدلة فى العالم الغربى.

أبو عمران موسى بن ميمون :

ولد فى قرطبة سنة ١١٣٥ وكان أبوه رياضيا وفلكياً بالإضافة إلى علمه بالتلمود ، واضطر موسى إلى مغادرة مهبط رأسه سنة ١١٤٨ — ٤٩ لأنه لم يرد

---

(١) Sarton ; Introduction to the history of Science.

أن يكره على اعتناق الإسلام ، فرحل مع أسرته إلى فاس ومراكش وفلسطين ثم استقرت فى الفسطاط . وفى مصر بدأ ابن ميمون يزاول الطب عملياً وكان قد درسه منذ زمن فاكتسب شهرة فائقة فى طبه حتى اتخذه آخر الخلفاء الفواطم طبيبه الخاص ، كما شغل هذا المنصب أيضاً عند السلطان صلاح الدين الأيوبى ثم صار أخيرا الطبيب الأول عند ابنه : الملك الأفضل نور الدين على ، وأخيرا توفى يوم ١٣ ديسمبر ١٢٠٤ بعد أن ألف كتباً كثيرة (١).

المبشر بن فاتك ، بين الحكمة والطب :

انتهينا من الحديث عن الطبيب على بن رضوان ، وسنتكلم عن صديقه الأمير أبو الوفاء المبشر بن فاتك. كان من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها وقد توفى فى نهاية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . أجاد علوم الهيئة والعلوم الرياضية والحكمية واشتغل أيضا بصناعة الطب ، ولازم لذلك على بن رضوان . كان المبشر كثير الكتابة ، ويقول ابن أبى أصيبعة أنه وجد بخطه كتبا كثيرة فى تصانيف المتقدمين . وكان المبشر قد اقتنى مكتبة احتوت على تصانيف كثيرة ، وبعضها قد تغيرت ألوان أوراقه بسبب غرق أصابه . ويحدث الشيخ سديد الدين المنطقى عن سبب هذا الغرق ، فيقول : « كان الأمير ابن فاتك محبا لتحصيل العلوم ، وكانت له خزانة كتب . فكان فى أكثر أوقاته يجلس فيها ولا يفارقها ، وليس له دأب سوى المطالعة والكتابة ، وكانت له زوجة فاضلة ولكن داخلتها الغيرة من الكتب . فلما توفى نهضت هى وجواريها إلى خزائن كتبه وفى قلبها من الكتب لوعة ، لأنه كان يشتغل بها عنها فجعلت تندبه ، وفى أثناء ذلك ترمى الكتب فى بركة ماء كبيرة فى وسط الدار هى وجواريها ، ثم أخرجت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها . فهذا هو سبب تغير ألوان ورقها (٢) .

---

(١) ألدو ميلى : العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى ص ٣٨٦ . دار القلم ، القاهرة ١٩٦٢

(٢) ابن أبى أصيبعة : ج ٢ ، ص ٩٨-٩٩ ، ياقوت : إرشاد الأريب ، ج ٦ ، ص ٢٤١

وللمبشر بن فاتك مجموعة من الأمثال(١) نسبت إلى قدماء الحكماء ، عنوانها « مختار الحكم ومحاسن الكلم » جمعها هذا الحكيم فى القرن الحادى عشر وترجمت هذه المجموعة إلى الأسبانية بعنوان « قطع الذهب »(٢) .

أما التراجم الأوربية الأخرى فنقلت عن ترجمة لاتينية باسم كتاب الفلاسفة الأخلاقيين ، وهى التى نقل الكاتب الفرنسى جيوم دى تنيونفيل كتابه المسمى حكم الفلاسفة ، الكتاب الذى ترجمه إلى الانجليزية الإيرل ريفرز باسم أمثال الفلاسفة وحكمهم . وكان هذا الكتاب أول مطبوع انجليزى طبعه وليم كاكستون سنة ١٤٧٧ ، وكان رائد الطباعة فى إنجلترا . وقد ظلت المؤلفات التى غذاها هذا الكتاب العربى ذات أثر فى عالم الفكر فى أوربا الغربية أكثر من أربعة قرون(٣).

الفيزيقا

أبو على الحسن بن الهيثم :

يقابلنا فى العصر الفاطمى أكبر علماء المسلمين فى الفيزيقا بل أعظم علمائها ، فى العصور الوسطى ، ولولاه ما أتيح لعلم البصريات أن يصل إلى ما أصبح عليه اليوم . ولد ابن الهيثم فى البصرة حوالى عام ٩٦٥ م وتوفى فى القاهرة عام ١٠٣٩ م . وكانت مؤلفاته التى سنتكلم عنها المرجع المعتمد فى البصريات عند علماء أوروبا حتى القرن السادس عشر .

وأهم كتب ابن الهيثم « كتاب المناظر » الذى ترجم إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢ ، وأخذ عنه علماء أوروبا جميع معلوماتها ، ولا سيما فى موضوع انكسار الضوء ،

(١) القفطى ، جمال الدين : كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء . القاهرة ١٣٢٦ هـ ص ١٧٦ـ١٧٧ . وقد ذكر القفطى أنه كانت لمبشر ابنة صرت بعده وروت بالاسكندرية أحاديث نبوية .

(٢) حقق الدكتور عبد الرحمن بدوى « مختار الحكم ومحاسن الكلم » وأصدره المعهد المصرى للدراسات الاسلامية فى مدريد عام ١٩٥٨ ضمن مطبوعاته.

(٣) فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ، ص ٢٨٤ (الطبعة العربية).

وتشريح العين ، وكيفيه تكوين الصور على شبكية العين[1] .

وليس من اليسير هنا أن نأتى على ذكر جميع مؤلفات ابن الهيثم ونبين شتى حقول العلوم التى ألف عنها هـذا العبقرى . فلقد آثر علم الهندسة وحدها بثمانية وخمسين تصنيفا ، ضمنها الكثير ملى آرائه الشخصية وبراهينه المخترعة وكانت منذ أقليدس وأرشميدس فى حاجة إلى الشرح والإثبات . ومن كتب الهندسـة « حل شكوك أقليدس وشرح معانيها » ، ومقاله فى أصول المساحة، وفى تربيع الدائرة، ومقالاته فى خواص القطع الزائد .

كذلك فى الفيزيقا (علم الطبيعة) وقد أربى ما ألفه فيها عن أربعة وعشرين، بين كتاب ورسالة ومقالة. وتناول فيها موضوع الضوء، ومسائل مراكز الإثقاف وصنعة الميزان وغير ذلك . ولم يبق من مؤلفاته فى الفيزيقا غير إثنى عشر مصنفا توجد اليوم تحت يد العلماء[2] .

وفى علم الفلك لم يصلنا من مؤلفات ابن الهيثم فيه إلا نحو سبع عشرة مقالة من أربعة وعشرين تأليفا ، ويوجد أغلب هذه المؤلفات فى مكتبتين باستانبول، وتوجد واحدة منها فى ليدن بهولندا وأخرى فى زنجان ، وثالثة فى القـاهرة . وقد تحدث عالمنا فى هـذه المؤلفات عن أبعـاد الأجرام السموية وأحجامها ، وكيفية رؤيتها ، وعن الرصد النجومى والأثر الذى فى وجه القمر ، وحركاته وارتقاع القطب .

وألف ابن الهيثم فى الحساب وفى الجبر والمقابلة مالا يقل عن عشرة كتب ولا يعلم عنها إلا عن كتابه « فى حساب المعاملات » بمكتبة عاطف بتركيا ، وفى « استخراج مسألة عددية » بهذه المكتبة أيضا .

ألف ابن الهيثم فى الطب كتابين ، أحدهما فى تقـويم الصناعة الطبية ضمنه خلاصة ثلاثين كتابا لجالينوس . والآخر « مقالة فى الرد على أبى الفرج عبد الله بن الخطيب » .

---

(١) يوجد مخطوط كامل من هذا الكتاب فى مـكتبة « أيا صوفيا » وستة أجزاء من مخطوط آخر فى مـكتبة الفاتح .

(٢) دكتور محمد على حجاب : الثروة العلمية لابن الهيثم، العدد الثانى من مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، ص ١٣٦ — ١٣٨

ولابن الهيثم فى الفلسفة والمنطق وعلم النفس والأخلاق، وفى الإلهيات واللغة ما يربى على أربعين مؤلفا ، لا نعرف موجودا منها غير مقالته فى « المكان » الموجودة فى مكتبة « إدارة الهند » بلندن ، ومقالته « ثمرات الحكمة » بمكتبة كوپرلى زاده بالآستانة .

وفى دار الكتب المصرية أربعة مخطوطات من تراث ابن الهيثم ، أحدها لكتاب « حل أقليدس وشرح معانيها » ، وفيها أيضا مصورات لبعض المخطوطات .

وتحظى لندن واستانبول وباريس وطهران وليدن والهند بعدد وفير من مؤلفات ابن الهيثم ويمكن الرجوع إلى أماكن كل مخطوط بعد مراجعة فهارس تلك المكتبات الكبرى(١) .

وللأستاذ العلامة مصطفى نظيف الفيزيقى المصرى ، أطال الله حياته عدة بحوث هامة عن علم ابن الهيثم نشرها فى مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم (٢) . وقد كتب فى مقدمة كتابه النفيس « البصريات » ما يلى : . . . والذى جعلنى أبدأ بعلم الضوء دون فروع الطبيعة الأخرى أن علما ازدهر فى عصر التمدن الإسلامى وكان من أعظم مؤسسيه شأنا ورفعة وأثرا الحسن ابن الهيثم الذى كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند أهل أوروبا حتى القرن السادس عشر ...(٣) .

اتفقت آراء جميع علماء الغرب على أن ابن الهيثم من الطراز الأول بين الرياضيين والطبيعيين فى الشرق والغرب ، فيقول سوتر Suter فى مقاله عن ابن الهيثم فى دائرة المعارف الاسلامية « وكان أحد أقطاب الرياضيين والطبيعيين العرب ، وكان أيضاً عالما بالطب وبسائر علوم الأوائل وخاصة فلسفة أرسطو » ويذكر دى بور فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » الذى ترجمه الأستاذ محمد عبد الهادى أبو ريدة :

« ونجد فى القاهرة فى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى رجلا من أعظم الرياضيين والطبيعيين فى العصور الوسطى ، هو أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم »

---

(١) د . محمد على حجاب : المصدر السابق ذكره ، ص ١٣٩ — ١٤٣

(٢) العدد الثانى (عدد خاص عن تاريخ العلوم) ويشمل المحاضرات التذكارية لابن الهيثم

(٣) « البصريات » هو عنوان الكتاب النفيس الذى وضعه الأستاذ مصطفى نظيف ويقع فى أكثر ٧٠٠ صفحة ولايقل مادة وتبويبا عن أحسن الكتب الأوروبية التى تتناول هذا الموضوع .

ويقول العلامة سارطون (Sarton) مؤرخ العلم عنه « أكبر عالم طبيعي مسلم ، ومن أكبر المشتغلين بعلم المناظر في جميع الأزمان . وكان أيضاً فلكيا ورياضيا وطبيعيا ، وكتب شروحا عدة على مؤلفات أرسطو وجالينوس » .

إن لابن الهيثم كلمات مأثورة كثيرة تؤلف منها كتب ، ذكرها الفيلسوف العربي البيهقي وهي تدل على نزعاته الأخلاقية ، منها قوله : « إبذل لمعارفك معروفك ، وللمستعد علمك واحرس عرضك ودينك . ومنها « إذا وجدت كلاما حسنا لغيرك فلا تنسبه إلى نفسك واكتف باستفادتك منه » . فان الولد يلحق بأبيه والكلام بصاحبه . وإن نسبت الكلام الحسن الذي لغيرك إلى نفسك نسب غيرك نقصانه ورذائله اليك .

ومن الحق القول أن ابن الهيثم وأمثاله من العلماء الأفذاذ قد أضاءوا العصر الذي عاشوا فيه وجعلوه عصراً ذهبيا نادرا تفخر به أية أمة في تاريخها .

الفلك

وفي أيام الفاطميين نبغ كثير من علماء الفلك ، نذكر منهم :

أبو الحسن بن عبد الرحمن بن يونس المصري :

أحد مشاهير الرياضيين والفلكيين الذين ظهروا بعد البتاني ، وأبي الوفاء البوزجاني. ويعتبره العلامة سارطون من فحول علماء القرن الحادي عشر الميلادي وقد يكون أعظم فلكي ظهر في مصر . ولد فيها وتوفى بالقاهرة حوالى ٣١ مايو عام ١٠٠٩ .

وابن يونس سبق غاليليو الإيطالي في اختراع الرقاص وفي استعماله في الساعات الدقاقة . وهو سليل أسرة اشتهرت بالعلم ، فأبوه عبد الرحمن بن يونس كان محدث مصر ومؤرخها وأحد علمائها ، وجده يونس بن عبد الأعلى صاحب الإمام الشافعي ومن المتخصصين بعلم النجوم .

عرف الخلفاء الفاطميون قدر ابن يونس وقدروا علمه فأجزلوا له العطاء وشجعوه على متابعة بحوثه في الفلك والرياضيات، وقد شيدوا له مرصداً على جبل المقطم قرب الفسطاط في مكان عرف ببركة الحبش ، وجهزوه بما يلزم من الآلات والأدوات .

قام بعمل عدة جداول فلكية (تعرف بالزيج) فبدأ بها فى أواخر القرن العاشر وأتمها فى عهد الحاكم بأمر الله ، وسماها (الزيج الحاكمى) . وكان قصد ابن يونس أن يتحقق من أرصاد الذين تقدموه وأقوالهم الفلكية وأن يكمل مافاتهم[١] وابن يونس هو الذى رصد كسوف الشمس وخسوف القمر فى القاهرة حوالى سنة ٩٧٨م وأثبت منها تزايد حركة القمر وحسب ميل دائرة البروج ، فجاء تقديره أقرب ما عرف إلى أن أتقنت آلات الرصد الحديثة .

وبرع ابن يونس فى المثلثات وأجاد فيها ، وبحوثه فيها فاقت بحوث كثيرين من العلماء ولها مكانتها الكبيرة فى تقدم علم المثلثات . كما أنه حل أعمالا صعبة فى المثلثات الكروية . وكان أول من توصـــل إلى القانون الآتى :

جتا ا جتا ب = ½ جتا (ا + ب) + جتا (ا — ب) .

وكان لهذا القانون أهمية كبرى قبل اكتشاف اللوغاريتمات عند علماء الفلك .

وابن يونس هو الذى اخترع آلة الربع ذات الثقب وبندول الساعة كما قلنا[٢]

وقد لمع فى المرحلة الفاطمية المهندس المصرى « أبو على » وكان على علم تام بعلم الهندسة عاش حوالى ٥٣٠ هـ / ١١٣٦ م ، وله أدب وشعر تلوح عليه الهندسة[٣] .

التاريخ والمؤرخون

كانت كتابة التاريخ أهم ما أسهمت به مصر فى روضة الأدب الإسلامى ، فكان نصيبنا من المؤرخين ولا سيما فى العصور الوسطى ، حقاً مما نفخر . أن المرجع

---

(١) قال العلامة سوتر فى دائرة المعارف الاسلامية عن هذا الزيج « من المؤسف حقا أنه لم يصل الينا كاملا » وقد نشر وترجم العالم كوسان بعض فصول هذا الزيج فى Notices et extraits des manuscrits de la Bibliothéque nationale. جـ ٧ ص ١٦ — ٢٤٠

(٢) قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى ، ص ٢٤٩ — ٢٥٢ .

(٣) من شعره هذا :

تقسم قلبى فى محبة معشر بكل فتى منهم هواى منوط
كأن فؤادى مركز وهم له محيط وأهوائى لديه خطوط

انظر : أخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطى ، ص ٢٦٢ ، مطبعة السعادة بالقاهرة .

الوحيد الذى يعتمد عليه فى معرفة تاريخ مصر الإسلامية من بداية الفتح العربى ، هو كتاب « الولاة والقضاة » لأبى عمر محمد بن يوسف الكندى المولد بالفسطاط (٨٩٧ — ٩٦١ م) وكان حجة ثقة فى معرفة أحوال مصر وأهلها وأعمالها . وقد وفق إلى تحقيقه وطبعه روفن جسست ، المستشرق الإنجليزى ، وقد نقل عنه المؤرخون الذين جاءوا بعده الكثير مما دونه فى كتابه ، ولا ريب أنه سبقهم إلى الكتابة فى خطط مصر وآثارها وفى تاريخ قضاتها .

وهناك مؤرخ مصرى آخر هو أبو القاسم عبدالرحمن بن الحكم (ت ٨٧١) ، وقد تعمق فى الشريعة الإسلامية . ويعد مؤلفه « فتوح مصر والمغرب » مرجعاً قيماً لتاريخ مصر الإسلامية ، بل وتاريخ العرب فى مصر والمغرب . وننتقل بعد ذلك إلى الفقيه أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق الليثى (٩١٨ — ٩٩٧ م) وقد أدرك ابن زولاق إنشاء القاهرة المعزية وعنى بتاريخ مصر وألف كتاباً فى سيرة الإخشيد ، وكتباً فى فضائل مصر وفى خطط مصر ، وتآليف أخرى فى سيرة القائد جوهر وسيرة المعز وسيرة العزيز بالله . ونلتقى أيضاً بالمؤرخ عز الملك المسبحى (٩٩٧ — ١٠٣٩ م) الذى كان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية وقد تولى الوزارة للحاكم بأمر الله وشغل عدة مناصب أخرى ، ألف فى تاريخ مصر عدة كتب ، منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » الذى لم يصل إلينا ، ولكن ذكر ابن خلكان عن رؤيته وفحصه وذكر أنه بلغ ١٣٠٠٠ ألف ورقة وقد كتب أيضاً سعيد البطريق (ت ٩٣٩ م) المعروف بأوتيقيوس بطريرك الاسكندرية عدة كتب فى التاريخ أبرزها كتابه المشهور « نظم الجوهر » أو التاريخ « المجموع على التحقيق والتصديق » كما صنف بعض المؤلفات فى الطب .

ونذكر بين عداد المؤرخين المصريين : القضاعى (ت ١٠٦٢ م) مؤلف « المختار فى ذكر الخطط والآثار » ، وقد أوفده المستنصر سفيراً لتيودورا امبراطورة بيزنطة عام ١٠٥٥ م . وكذلك المؤرخ الجوانى ، وأبو صالح الارمنى الذى ألف فى تاريخ الكنائس والأديار المصرية وتاريخ القديسين والبطاركة ، وقد طبع هذا الكتاب فى أكسفورد عام ١٨٩٥ .

كما وصل إلينا كتاب قوانين الدواوين لأبى المكارم أسعد بن المهذب المعروف بابن مماتى القبطى الأصل وكان ناظر دواوين مصر (ت ١٢٠٩ م) ، وقد عاصر الفواطم والأيوبيين .

ساويرس بن المقفع :

عاش ساويرس بن المقفع المؤرخ القبطى فى القرن العاشر وتوفى فى النصف الثانى منه وقد عاصر الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، عرف واشتهر بكتابه «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية» . كان أسقفاً الأشمونين التى تقع بين المنيا وأسيوط فى صعيد مصر وألف كثيراً فيما يتصل بالناحية الدينية ، مثل كتاب «طب الغم وشفا الحزن» وكتاب التبليغ رد فيه على اليهود ، وكتاب الرد على سعيد بن بطريق ، وكتاب «التوحيد» ، وكتاب «الاتحاد» ، وكتاب «اختلاف الفرق» ، وكتاب «السير» ، وربما هو «سير الآباء البطاركة» المعروف أيضا «بتاريخ بطاركة الكنيسة المصرية» (١) وقد نشره المستشرق إيفتس بعنوان «سير الآباء البطاركة» أو تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية فى الاسكندرية ضمن مجموعة Patrologia Orientalis (وذلك فى الجزء الأول من هذه المجموعة الذى نشر فى باريس ١٩٠٧ ، والجزء الخامس ، باريس ١٩١٠ ، والجزء العاشر ، باريس ١٩١٥) . ثم تولت جمعية الآثار القبطية بمصر نشر الأجزاء الباقية من هذا الكتاب بمعاونة الأستاذ يسى عبد المسيح ، والأستاذ برمستر ، والدكتور عزيز سوريال عطية وكان عنوانه «تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة» .

وكتاب المؤرخ ساويرس خاص بتراجم البطاركة فى مصر من أيام ظهور المسيحية فيها زمن الإمبراطور الرومانى أغسطس قيصر ، وقد وصل ما نشر من هذه التراجم إلى بداية حكم الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله سنة ١٠٩٢ أو ٤٩٦ هـ . ويهدف فى كتابه إلى تمجيد الدين المسيحى والإشادة بالمذهب الأرثوذكسى ، وبيان جهاد البطاركة فى سبيل حمل أمانتهم .

ويتعرض كتاب ساويرس فى خلال تراجم البطاركة لتاريخ العصور الوسطى الإسلامية فى فترة تقرب من خمسة القرون ، تلك الفترة من التاريخ الإسلامى التى شهدت ميلاد أمة ، واتساع فتوحات ، وتوحيد شعوب ، وقيام حضارة زاهرة خلفت للانسانية تراثا مجيدا . ففى كتابه يبين لنا كيف تم فتح مصر على يد العرب ، ثم كيف كانت معاملتهم الأقباط من النواحى الدينية والاجتماعية

---

(١) د سيدة اسماعيل كاشف : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع وأهميته لدراسة التاريخ القومى . المجلة التاريخية . مجلد ، ص

والادارية والمالية . فيفصل الكلام على الأحداث السياسية والدينية والاقتصادية الهامة التى حدثت فى عصر الولاة العرب وفى أيام الطولونيين والأخشيديين ثم قيام الخلافة الفاطمية فى مصر ، كذلك يبين لنا علاقة البطاركة المصريين بولاة مصر وأمرائها وخلفائها من ناحية ، ثم علاقة هؤلاء البطاركة بالنوبة والحبشة وشمال أفريقيا والشام من ناحية أخرى . ويتحدث عن علاقة المسلمين فى مصر بإخوانهم المسيحيين ، وعلى الكنائس التى بنيت أو جددت فى العصر الإسلامى وعلى تسامح الولاة والأمراء والخلفاء مع مسيحى مصر وعلى تشدد بعضهم . ويفيض ساويرس فى حديثه عن انتشار الإسلام فى مصر ، كما يعطينا فى بعض الأحيان أرقاماً بعدد الذين تحولوا إلى الإسلام فى ظروف معينة . وأكد المؤرخ أن الحكومة الإسلامية منذ البداية ، انتصرت للأقباط الأرثوذكس أو اليعاقبة على أعدائهم فى المذهب وهم الملكانيين أتباع الملك البيزنطى (الروس) . وذكر أن الملكانيين فى العصر الإسلامى فى مصر ، لم يتمتعوا بالحرية الدينية إلا فى فترات وتحت ظروف معينة .. وبين لنا ساويرس أن الأقباط شغلوا كثيراً من الوظائف فى العصر الإسلامى وخاصة الوظائف المالية ، وأورد لنا بعض أسماء كثيرة من كبار الموظفين القبط . وأكد المؤرخ أن الدين لم يفرق بين المصريين فى الشعور بأنهم أبناء وطن واحد .

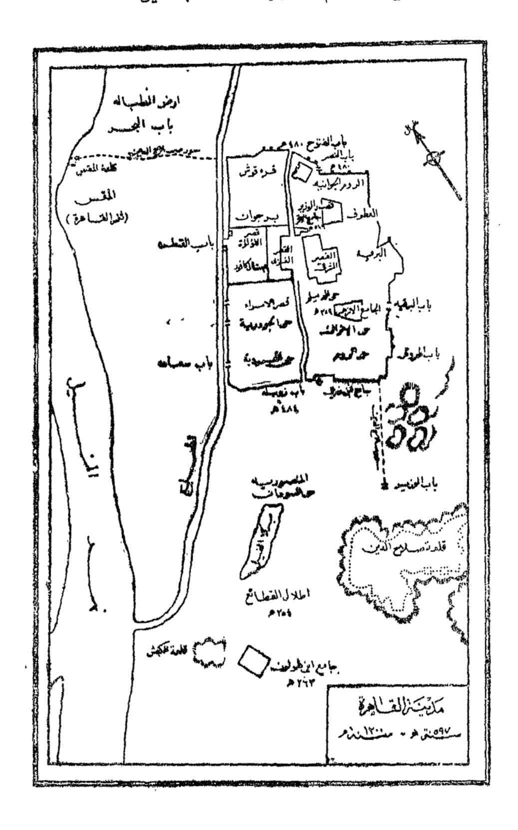
ولم يفت ساويرس أن يتكلم عن تحسين مدينة الاسكندرية . فالمعروف أن الروم كثيراً ما أغاروا فى العصر الإسلامى على الاسكندرية أو غيرها من الثغور . وقد أغار الروم على دمياط وسواحل مصر فى خلافة المتوكل على الله العباسى (٢٣٨ هـ / ٨٥١ م) ، وحين كان عنبسة بن اسحق واليا عليها [١] .

وحين يحدثنا ساويرس عن الصليبيين وقدومهم إلى الشرق لا يعتبران هذه الحروب حرب بين الإسلام والمسيحية ، وإنما ينظر إلى الصليبيين كغزاة أعداء

---

(١) ساويرس : المجلد الثانى جـ ١ ص ١٠ (نشرة جمعية الآثار القبطية)

للشرق . ويعلق على امتلاكهم لبيت المقدس بأن الأقباط واليعاقبة سوف لا يستطيعون الحج لاختلافهم والصليبيون فى المذهب الدينى .



المقالة الثالثة

الحضارة فى أيام الأيوبيين

كان أول ما اتجه إليه السلطان صلاح الدين الأيوبى، أنه عنى بالتعليم الدينى ، فعمل بهمة فى إزالة المعتقدات والتقاليد والعادات التى لا تمت بأية صلة للدين الحنيف ، والمعروف أنه لما ملك الفاطميون مصر ، جلبوا دعوتهم وعملوا على نشر مذهب الشيعة فى البلاد ، فكان الأزهر فى أيامهم مركز الدعوة ، ومضى خلفاؤهم يشيدون دور العلم فمم ، مذهبهم البلاد بأسرها ، ولكن ظلت هناك بالرغم من تلك الجهود ، بعض المدارس التى كان يدرس فيها المذاهب السنية ولا سيما فى الإسكندرية والأقاليم .

كان بالإسكندرية قبل وصول صلاح الدين إلى مصر بعض المدارس التى تقوم بدراسة الفقه على المذهب السنى ، ومن هذه المدارس مدرسة أنشأها الوزير سلار الذى كان فى أول أمره شيعيا ثم أظهر اعتناقه المذهب السنى . شيد ابن السلار مدرسة فى عام ٥٤٦ هـ — ١١٥١م، وقام على إدارتها الحافظ السلفى ،وهو من أعظم أئمة الفقه والحديث، وقد أدرك هذا الإمام صلاح الدين وكان يذهب إليه بأولاده لسماعه.

كان من أهداف صلاح الدين بعد القضاء على حكم الفواطم بمصر ، أن يوحد الجبهة الإسلامية لتقف صفاً واحداً فى طرد الصليبيين من البلاد العربية بعد أن توغلت أقدامهم فى سورية وتملكوا سواحلها ، فنجح وخلفاؤه فى التغلب عليهم فى عدة معارك ، حتى تم الفوز الكبير على أيام المماليك ، وبدأ صلاح الدين يتخلص من المذهب الفاطمى ، واتخذ فى سبيل ذلك خطة منظمة رسمها للتخلص تدريجياً من دعوة الفواطم . وأول ما بدأ به بناؤه مدرستين على عهد العاضد ، أولاهما : مدرسة للشافعية بناها بجوار جامع عمرو بن العاص لتدريس الفقه الشافعى فى عام ٥٦٦ هـ — ١١٧٠ ، وقد عرفت بأسماء كثيرة ، المدرسة الناصرية والمدرسة الشريفية ومدرسة بن زين التجار الدمشقى أحد أعيان الشافعية ، وقيل إنه كان

أول من درس بهذه المدرسة مدة طويلة ومات فى عام ٥٩١ هـ — ١١٩٥ ، وقد وقف عليها صلاح الدين ، الصاغة وإحدى القرى .

والمدرسة الثانية ، مدرسة المالكية بجوار جامع عمرو بالفسطاط ، وذلك فى عام ٥٦٦ هـ — ١١٧٠ . عرفت باسم دار الغزل التى هدمها صلاح الدين وعرفت بالمدرسة القمحية ، ثم وقف عليها قيسارية الوراقين وضيعة بالفيوم واشتهرت بنتاج القمح ولذلك نسبت إليه ، ورتب فيها أربعة من المدرسين يشرف كل واحد منهم على بعض طلاب ، وكانت أجل مدرسة للفقهاء المالكية .

وبعد وفاة العاضد ، وانتقال السلطة إلى صلاح الدين ، مضى الرجل العظيم فى تشييد المدارس فبنى مدرسة للفقهاء الحنفية ، أطلق عليها اسم المدرسة السيوفية ، شيدت إذ ذاك بدار الوزير الفاطمى المعروف باسم عباس العبيدى ، وهو ابن أحد الأمراء الفاطميين ، وقد خربت تلك المدرسة وحل محلها الآن جامع الشيخ مطهر بشارع المعز لدين الله على يسار الداخل إلى شارع المعز لدين الله من شارع السكة الجديدة .

وشيد صلاح الدين مدرسته الرابعة وهى مدرسة الشافعية بجوار تربة الإمام الشافعى وقد حل محلها بعد هدمها فى عهد الأمير عبد الرحمن كتخدا — مسجد الإمام الشافعى ، وقد قال الإمام السيوطى عن تلك المدرسة :

« ينبغى أن يقال لها تاج المدارس ، وهى أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق لشرفها بجوار الإمام الشافعى ، بناها صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ — ١١٧٦/٧٧ ، فلما كانت سنة ٦٨١ هـ — ١٢٨٢ ولى التدريس بها قاضى القضاة تقى الدين محمد ابن رزين الحموى وكان العالم الكبير نجم الدين[١] الخبوشانى ممن درسوا بها فترة طويلة .

أما المدرسة الخامسة فقد أطلق عليها المدرسة الصلاحية ، أنشأها صلاح الدين للشافعية بجوار المشهد الحسينى ، ولم يبق منها شىء الآن ، وقد أصبح موقعها ضمن جامع الحسين فى الإيوان الشرقى عند المحراب الحالى للجامع .

---

(١) لما قدم الرحالة ابن جبير مصر عام ١١٨٣ ، زار هذا الشيخ الجليل فى مسكنه وكانت شهرته قد وصلت إلى الأندلس .

تلك هى خمس مدارس بناها صلاح الدين فى مصر رغم جهاده المتواصل فى الحروب الكثيرة ضد الغزاة الصليبيين ، يضاف إليها ما شـــيده منها بدمشق وفى القدس . ولقد ذكر ابن خلكان هذه المدارس التى بناها السلطان وقال :

ولقد فكرت فى نفسى فى أمور هذا الرجل ، وقلت إنه سعيد فى الدنيا والآخرة ، فإنه فعل فى الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة ، وليس شىء منها منسوباً إليه فى الظاهر ، فإن المدرسة التى بالقرافة ما يسمونها الآن بالشافعية ، والمجاورة للمشهد الحسينى لا يقولون إلا المشهد ، والخانقاه لا يقولون إلا سعيد السعداء والمدرسة الحنفية لا يقولون إلا السيوفية ، والتى بمصر الفسطاط ، وهذه صدقة السر على الحقيقة .

امتد نشاط بناء المدارس الدينية إلى أبناء السلطان صلاح الدين وأمرائه ، فشيد القاضى الفاضل سنة ١١٨٤ المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وأنشأ السلطان العادل المدرسة العادلية ، كما أقام تقى الدين عمر المدرسة المعروفة بمنازل العز أو التقوية للشافعية بجنوبى الفسطاط ، وقد أقام مدرستين أخرتين بالفيوم . . هذا إلى المدارس الكبرى التى سنتكلم عنها كالكاملية والصالحية .

وعلى هذا النحو زاد عدد المدارس زمن الأيوبيين زيادة ملحوظة ، ففى شارع بين القصرين بالقاهرة كان على جانبيه مدارس فى موضع القصر الفاطمى ، وبلغ عدد المدارس بالقاهرة وحدها حوالى سنة ٦٠٠ هـ — ١٢٠٣ / ١٢٠٤ — ثلاث عشرة مدرسة ، ثم تضاعف هذا العدد فى زمن المماليك ولا سيما فى أخميم وقوص وإسنا وأسيوط وأسوان وبلبيس والمحلة ودمنهور ورشيد .

دار الحديث الكاملية :

وتلك مدرسة كبرى ، أنشأها الملك الكامل محمد بن العادل الأيوبى لدراسة الحديث الشريف ، وكان ذلك فى عام ٦٢٢ هـ — ١٢٢٥ ، وهى ثانى مدرسة أقيمت للحديث ، قيل أن الملك نور الدين محمود زنكى كان أول من بنى داراً خصها لتلك الدراسة الجليلة ، وقد وقفها الكامل على المشتغلين بالحديث النبوى ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية وقد وقف عليها الربع الذى كان بجوارها

بجوارها على باب الخرنفش المواجه لمسجد الأقمر ، وكان أول من ولى التدريس فى الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر ، ثم أخوه عمرو عثمان بن الحسن . ومابرحت بيد أعيان الفقهاء إلى عام ٦٨٦ هـ — ١٢٨٧ فخربت بسبب الأحداث والمحن التى ألمت بالبلاد . ولم يبق من تلك الدار الكبرى سوى بقايا الإيوان الغربى ، وقد نقل منها بقايا زخارف جصية بها كتابات بالخط الكوفى إلى متحف الفنون الإسلامية ، ويرى بعض علماء الآثار ، أن المدرسة الكاملية أقدم مبنى لطراز تخطيط المدرسة ذات الإيوانين . . ذلك الطراز الذى تطور فيما بعد إلى أربعة إيوانات . . وتقع بقايا الدار الكاملية على الجانب الغربى لسوق النحاسين وإلى الناحية الشمالية لمدرسة وضريح السلطان برقوق .

المدرسة الصالحية :

تنسب إلى منشئها الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى وضع أساسها فى ١٤ ربيع الأول ٨٤٠ هـ — ١١ سبتمبر ١٢٤٢ وبدأت الدراسة بها فى العام التالى (٦٤١ هـ — ١٢٤٣) بالرغم من ضخامة بنائها . قامت فى خط بين القصرين وكان موضعها القصر الفاطمى الشرقى وقد دون تاريخ إنشاء المدرسة فى اللوحة التذكارية أعلى بابها وبأسفل المئذنة ، وقد دخل فيها باب الزهومة أحد أبواب القصر المؤدية إلى المطابخ .

وقد رتب السلطان فيها الدروس الدينية للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة ، وأول من درس بها من الحنابلة قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر .

وكان لايقل مساحة تلك المدرسة الجليلة عن ستة آلاف متر مربع ، تألفت من بنائين كبيرين ، أحدهما يتجه نحو الجنوب والآخر نحو الشمال ، يتوسطهما المدخل الذى تعلوه المئذنة ، وقد اشتمل كل من البنائين على إيوانين كبيرين شرقى وغربى ، أما الجانبان الشمالى والقبلى فقد تكون كل منهما من عمد تحمل عقوداً من المحتمل أنها كانت تحمل فوقها غرف الأساتذة والطلاب . وقد اندثرت إيوانات المدرسة الجنوبية ، ولم يبق بالمدرسة الشمالية سوى الإيوان الغربى ، أما الإيوان الشرقى فقد تهدم معظمه ، وهناك بين الإيوانين بقايا عمد وعقود .

وكان طول وجهة المدرسة حوالى مائة متر ، يتوسطها المدخل المذكور وعليه المئذنة التى تحتفظ بطابعها الأيوبى الأصيل . وهذه الوجهة التى بقى جزء كبير منها إلى اليوم ، غنية بالنقوش والكتابات ، وقد بذل الجهد فى تجميلها الرائع . فإننا نرى أعتاب النوافذ والأبواب قد حليت بإفريز مسنن مزخرف يعلوه عتب آخر حليت صنجه بحلقات أو دوائر مزخرفة وفوقها سطر مكتوب به ألقاب السلطان ، ثم عقد آخر حافته مقرنصة من خمس حطات يتوسطه مستطيل كتب فيه تاريخ المبنى .

أما المئذنة فلها أهمية خاصة عند المشتغلين بالعمارة الاسلامية ، فهى نموذج فريد للمآذن الأيوبية ، ومكانتها من ناحية التطور المعمارى بين مئذنتى ضريح أبى الغضنفر (١١٥٧) ومئذنة جامع بيبرس الثانى .

لما استقرت الأحوال لصلاح الدين فى مصر ، أنشأ البيمارستان الصلاحى (الناصرى) فى عام ٥٧٧ هـ — ١١٨١ فى أحد القصور ، وخصص للصرف عليه أجرة الرباع الديوانية مشاهرة ومبلغها مائتا دينار وغلات من الفيوم ، كما استخدم له الأطباء . وقد زار هذا البيمارستان الرحالة الأندلسى ابن جبير حينما قدم إلى مصر سنة ٥٧٨ هـ — ١١٨٢ م ، وقال عنه :

« . . . ومما شاهدناه أيضاً فى مفاخر هذا السلطان المارستان الذى بمدينة القاهرة ، وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً . . وعين قيما من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ، ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ، ووضعت فى مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسى ، وبين يدى ذلك القيم خدم يتكلفون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيعطون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم . وبإزاء هذا الوضع موضع منقطع للنساء المرضى ولهن أيضاً من يكفلهن ، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر يتسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت للمجانين . ولهم أيضاً من يتفقد فى كل يوم أحوالهم ويقابلها بما يصلحها والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد فى الاعتناء بها والمثابرة عليها غاية التأكد » . ومن الأطباء الذين عملوا فى هذا المارستان :

رضى الدين الرحبي ، وإبراهيم بن الرئيس موسى بن ميمون ، وموفق الدين أبو العباس بن أبي أصيبعة مؤلف أول موسوعة عن أطباء العرب ، والشيخ السديد أبو البيان الاسرائيلي ، والعلامة الطبيب ابن النفيس .

أطباء العصر الأيوبي

رضى الدين الرحبي أبو الحجاج يوسف :

طبيب تميز بخصاله الحميدة وبنشاطه وبتقواه وحبه لعمل الخير . وكان والده كحالا . ولد في جزيرة ابن عمر عام ٥٣٤ ﻫ (١١٣٩ م) وتلقى العلم ثم هاجر إلى بغداد حيث تعلم الطب . ولما عاد إلى مصر تعرف على الشيخ الموفق المعروف بابن جامع المصرى وأفاد من علمه . وفي عام ٥٥٥ ﻫ رحل بصحبة والده إلى دمشق على أيام سلطنة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى وتتلمذ للشيخ مهذب الدين ابن النقاش فاستفاد من علمه الوفير وأتاحت له الظروف الاتصال بالملك الناصر صلاح الدين يوسف فنال مكانة لديه وخصه براتب شهرى قدره ثلاثين ديناراً نظير قيامه بعلاج المرضى في قلعة الجبل والبيمارستان الصلاحى . وقد شغل هذا المنصب طوال حياة صلاح الدين . ولما توفى في عام ١١٩٣ وخلفه شقيقه الملك العادل أبو بكر أوفده هذا إلى دمشق حيث نهض بعمله طبيبا براتبه المذكور . ولكن لما تولى المعظم عيسى بن الملك العادل الملك خفض راتبه إلى خمسة عشر جنيه وأمره بأن يقوم بعمله في المارستان فقط ، فظل يزاول نشاطه حتى مات عام ١٢٣٣ م وكان يتمتع بصحة جيدة . ومن أهم تآليفه :

١ — شرح وتعليق على كتاب الفصول لأبقراط (Aphorisms) .

٢ — موجز لكتاب حنين (الأسئلة والأجوبة) .

ابراهيم ابن الرئيس أبو المنى بن الرئيس موسى بن ميمون :

ولد بالفسطاط ، اشتهر بعلمه . التحق بخدمة السلطان الملك الكامل وزاول عمله طبيبا بالقصر وبالمارستان . تعرف عليه ابن أبي أصيبعة في أثناء عمله بالمارستان وقال عنه أنه غزير المعرفة في العلوم الطبية . وقدمات بعد عام ١٢٣٣ بسنوات قليلة .

نفيس الدين أبو القاسم هبة الله بن صدقة بن الزبير :

أصله من كولام بالهند ، ولد حوالى ١١٦٠ م وقد مهر فى الجراحة والكحالة وذاع صيته بين أطباء زمانه ، ومن أجل ذلك سمح له السلطان الكامل بن الملك العادل بالإشراف على جميع الأعمال الطبية فى مملكته الكبيرة ، وبالإضافة إلى عمله الضخم مارس الكحالة فى البيمارستان الناصرى . وقد توفى نفيس الدين عام ١٢٣٨ م .

جمال الدين أبو الحسن بن يوسف القفطى :

صاحب كتاب اسمه « أخبار العلماء بأخبار الحكماء » ، قريب الشبه بمعجم ابن أبى أصيبعة عن الأطباء ، ولد عام ٥٦٨ هـ (١١٧٢) بمدينة قفط فنسب إليها . تلقى علومه بالقاهرة ، ثم أتم دراسته بالقدس وقضى نحوا من خمسة عشر عاماً بهذه المدينة ثم رحل بعدها إلى حلب وهناك عهد إليه القيام على إدارة الأموال وكان ذلك حوالى عام ٦١٠ هـ . وبقى يشغل هذا المنصب إلى أن أصبح وزيرا فى حلب ، وذلك عام ٦٢٣ هـ . فظل وزيرا بها حتى توفى عام ٦٤٦ هـ (١٢٤٨) .

لم يخلف ولدا ولم يكن يحب من الدنيا سوى الكتب ، فأوصى بمكتبته للملك الناصر صاحب حلب . وأكثر كتب القفطى فى التاريخ : كتاريخ القاهرة ، وتاريخ اليمن ، وتاريخ المغرب ، غير أن الباحثين لا يكادون يعرفون له غير الكتب الآتية : « أنباه الرواة على أخبار النحاة ، وأخبار مصر ، وأخبار المحمدين من الشعراء وأشعارهم » . غير أنه لم يصلنا من كتبه سوى « أخبار العلماء بأخبار الحكماء » وهو معجم تاريخى للفلاسفة والأطباء والعلماء من العرب وغيرهم مرتبين على حروف الأبجد (١) .

ابن أبى أصيبعة :

ظهر موفق الدين أحمد بن أبى أصيبعة (١٢٠٣ — ١٢٧٠) الطبيب ، وهو ابن كحال شامى . حصل الطب على ابن أبى دخوار فى القاهرة . ولازم ابن البيطار العالم الأندلسى الشهير فى أبحاثه النباتية . وهذا كتابه الرائع « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » منقطع النظير فى آثار العرب وهو موسوعة متقنة تضم نحوا

---

(١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء : مطبعة السعادة ، القاهرة ، عام ١٣٢٦ هـ

من أربع مئة من سير الأطباء العرب واليونان ، قل منهم من لم يكن ، إلى طبه ، فيلسوفاً أو فلكياً أو طبيعياً أو حساباً . نشره أولا امرؤ القيس ابن الطحان (أوغست مولر) فى مجلدين (القاهرة ، ١٨٨٢) ، ثم طبع ثانية مع صفحات إضافية ، وتصحيحات وفهرس بعناية أوغست مولر فى مجلدين (كونجسبرغ ، ١٨٨٤) .

أبو البيان ابن المدور :

وصلت إلينا أسماء عدد كبير من الأطباء اللامعين فى أيام صلاح الدين نذكر من هؤلاء ابن المدور ، وابن الناقد ، وابن جامع ، وأبو المعالى . وقد عمل بعض هؤلاء اطباء فى المارستان الصلاحى . أما أبو البيان بن المدور (توفى بالقاهرة فى ح ١١٨٤ — ٨٥) لقد كان طبيباً لآخر الخلفاء الفواطم ثم أصبح طبيب صلاح الدين (ت ١١٩٣) وقد كتب أهم مشاهداته فيما أسماه (رسالة المجربات فى الطب) ، وينسب إليه العلامة ليكلرك Leclerc مصنفاً فى الصيدلة عبارة عن فارماكوبيا بعنوان (الدستور المارستانى) .

أبو المكارم هبة الله بن الحسن جامع :

ولد فى الفسطاط واختاره صلاح الدين طبيباً له . كتب عدة رسائل فى الطب ، منها : (كتاب الإرشاد لمصالح الأنفاس والأجساد . وقد أكمله إبنه أبو طاهر إسماعيل . وكتاب الإرشاد منقسم إلى أربعة أقسام : ١ — عام ، ٢ — الطب البسيط والأغذية ، ٣ — تدبير الصحة والعلاج ، ٤ — الادوية المركبة والأغذية .

وهذا طبيب آخر ، قربه صلاح الدين إليه ، وهو أبو المعالى بن هبة الله ، الذى قدره أيضا السلطان العادل بعد وفاة صلاح الدين . ألف عدة مصنفات فى الطب ، وواحد منها يحمل العنوان : « تعليق ومجربات فى الطب » .

أما ابن النفيس ذلك الطبيب النابغة ، فقد اشتغل بهذا العلم فى أواخر أيام الايوبيين فى مصر ولكنه لمع على أيام المماليك ولذلك رأينا أن نتكلم عنه فى المرحلة المملوكية .

ونتكلم بعد ذلك على أحد أعلام طب العيون فى العصر الأيوبى ، وهو :

أحمد بن عثمان أبو العباس :

كان من أشهر أطباء العيون فى أيام السلطان الصالح نجم الدين (١٢٤٠ — ٤٩) وهو ابن القاضى جمال الدين أبو عمر عثمان المولود بدمشق وقـــد حذق الطب . جاء إلى مصر بصحبة الملك العزيز حينما تولى شئون مصر ، ولما توفى العزيز (١١٩٨) بقى فى مصر وواصل خدمة السلطان الكامل طبيباً له طوال حياته . أما أحمد فقد تعلم الطب وحذق علاج المرضى وقد أطلق عليه « رئيس الأطباء بالديار المصرية» وفى أثناء حكم الصالح نجم الدين ، ألف رسالة فى أمراض العين ، عنوانها : « كتاب نتيجة الفكر فى علاج أمراض البصر » . وقد قسم محتواه إلى ١٤ فصلا ، نوضحها فيما يأتى :

١ — الغشاء المبطن للعين .

٢ — القرنية .

٣ — السائل المائى فى الغرفة الأمامية والخلفية للعين .

٤ — ؟

٥ — السائل شبه الزلالى .

٦ — الأغلفة الداخلية .

٧ — العدسة .

٨ — قاع العين .

٩ — عصب الأبصار .

١٠ — عضلات كرة العين .

١١ — الجفون .

١٢ — تجويف العين الخارجى وغدد الدموع .

١٣ — الفصل الختامى ويتناول فيه ضعف البصر والصحة العامة .

ولا نعرف السبب الذى من أجله لم يذكره ابن أبو أصيبعة فى موسوعته بين الأطباء . ومما يذكر أن جمهرة من الأطباء الغربيين أمثال ليكلارك عنوا ببحث هذه

الرسالة أثناء دراستهم الطب العربي وقدروها كل التقدير . وكان الطبيب ن. كحيل قد ألقى بحثاً عن الرمد والطبيب أحمد القيسي فى المؤتمر الطبي الذى عقد فى القاهرة فى عام ١٩٢٨ (١).

أبو سليمان داود بن أبي المنى :

وفى أيام الأيوبيين ، اشتهرت طائفة من أطباء النصارى ، منهم أبو سليمان داود بن أبي المنى (ت ١١٨٧ م) . امتاز فى الطب والعلم وكان عارفاً بأحكام النجوم معرفة بالغة. جاء من القدس واستوطن مصر ، ونال حظوة لدى السلطان صلاح الدين . اتفق أن تنبأ أبو سليمان السلطان صلاح الدين بفتح المقدس ، فلما اكتملت نبوته ، استدعاه صلاح الدين ، وقام له إجلالا , وقال له : « أنت شيخ مبارك ، وقد وصلت إلينا بشراك ، وتم جميع ما ذكرته ، فتمنى على . فقال له : « أتمنى عليك حفظ أولادى» . فأخذ السلطان الناصر أولاده ، واعتنى بهم، ووصى أخاه الملك العادل بأن يكرمهم . ويكونوا من خواصه ، فكان ذلك . ولأبى سليمان مقالة فى الترياق (٢) .

ومنهم الطبيب مهذب الدين أبو سعيد (ت ١٢١٦ م) وهو ابن أبي سليمان المتقدم ذكره . مهر فى صناعة الطب وخدم صلاح الدين وشقيقه الملك العادل . وكان الملك العادل قد اختاره لخدمة ابنه الملك المعظم وأكرمه وانتقل أبو سعيد من القدس إلى مصر حيث علت منزلته وكثر ماله .

ومنهم الطبيب موفق الدين أبو شاكر (ت ١٢١٦ م) وهو ابن أبي سليمان وأخو مهذب الدين . حذق الطب وكان طبيب الملك العادل المفضل ، ثم اتصل بابنه الملك الكامل فأسكنه عنده فى قصره بالقاهرة .

---

(١) N. Kahil · Une Opthalmologie arabe par un practicien du Caire. du XIII e siecle. Congrés de médécine du Caire. Dec. 1928 (p. 241—290) .

انظر أيضا مقدمة كتاب سارتون ج ٢ (القسم ٢) ، ص ٧٠٤

(٢) فهرس بول سباط رقما ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

ومنهم أبو الفضل بن أبى سليمان (ت ١٢٤٦) وهو أخو مهذب الدين ، وموفق الدين . كان عالما بصناعة الطب وامتاز فى المعالجة وكان طبيبا للملك المعظم بن الملك العادل مقيما بالكرك ثم صار طبيبا للملك الكامل بمصر .

ومنهم رشيد الدين أبو سعيد بن موفق الدين (ت ١٢٤٨) . خدم الملك الكامل بالقاهرة زمانا ثم خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب ومات بدمشق . وله كتاب « عيون الطب » ، وله أيضا تعليقات على كتاب الحاوى للرازى فى الطب .

وإلى جانب هؤلاء الأطباء نذكر أيضا :

رشيد الدين أبو حليقة (ت ١٢٧٧) : وهو أبو الوحش بن الفارس أبى الخير وعرف بأبى حليقة . كان متفننا فى العلم والأدب ، حسن المعالجة ، لطيف المداواة رؤوفا بالمرضى ، ومحبا لفعل الخير . رآه الملك السلطان الكامل وهو صبى ، فلمح الذكاء فى عينيه . فلما قابل والده ، قال له : والدك هـذا ولد ذكى ، لا تعلمه الجندية ، فالأجناد عندنا كثيرون ، وأنتم بيت مبارك ، فقد استبركنا بطبكم ، فسيره إلى الطبيب أبى سعيد بدمشق ، ليقرئه الطب . فامتثل والده الأمر ، وسيره إلى دمشق ، فأقام بها مدة سنة كاملة ، ثم جاء إلى القاهرة فى سنة ١٢٠٣ ، وأقام بها ، وبقى أبو حليقة فى خدمة الملك الكامل ، حتى توفى . ثم خدم بعده ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى أن توفى الملك الصالح ، ثم خدم ولده الملك المعظم ، ولما قتل هذا فى أثناء معركة المنصورة ، صار فى خدمة السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الذى أكرمه وأجزل له العطاء ، ثم اعتزل فى أواخر حياته خدمة بيبرس وانقطع إلى العبادة (١) .

له مقالة فى ضرورة الموت ، وأخرى فى حفظ الصحة ، وكتاب فى الأدوية المفردة ، سماه المختار فى الألف عقار ، وله أيضا كتاب فى الأمراض وأسبابها ، وعلاماتها ، ومداواتها بالأدوية المفردة والمركبة .

ومنهم مهذب الدين أبو سعيد بن أبى حليقة : ولد بالقاهرة سنة ١٢٢٣ م ، وقرأ على أبيه الطب وأحاط بعلوم الحكمة . خدم السلطان الظاهر بيبرس فنال عنده منزلة حسنة . وله كتاب فى الطب وكان شقيقه : موفق الدين

(١) بولس سباط : مجلة المشرق : ج ٢ تشرين ١٩٤٥ ، ص ١٨ــ١٩ . أنظر له أيضا فهرس المخطوطات ، المخطوطان رقم ١٢٧ و ١٢٨

أبو الخير ماهر فى صناعة الكحل ، كثير العلم والفضل ، وصنف للملك الصالح نجم الدين أيوب كتابا فى الكحل(١) . وشقيقه علم الدين أبو نصر وهو الأخ الأصغر لمهذب الدين وموفق الدين وكان فى مصاف العلماء وحاذقا فى الطب .

ابراهيم بن على محمد السلمى

يعرف بالقطب المصرى (ت ٦١٨ هـ / ١٢٢١) وهو طبيب مغربى الأصل، انتقل إلى مصر وأقام بها مدة ثم رحل إلى خراسان وتعلم بها على الفخر الرازى وصار من كتاب تلامذته ، وصنف كتبا فى الطب والفلسفة وشرح (الكليات) بكمالها من كتاب القانون لابن سينا . قتل بنيسابور لما استباحها التتار .

أبو البقاء صالح بن الحسين الجعفرى

طبيب. ألف للكامل محمد السلطان الأيوبى بمصر فيما بين ١٢٢١ و ١٢٢٢ رسالة عنوانها (كتاب البيان الواضح المشهود من فضائح النصارى واليهود) ولها عنوان آخر (تخجيل من حرف التوراة والإنجيل) وقد نشرها العلامة تريبس فى بون عام ١٨٩٧

يعقوب بن صقلاب الموفق

طبيب نصرانى ولد بالقدس وقرأ على راهب فيلسوف وألم بالهندسة والحساب ثم اجتمع بالشيخ أبى منصور الطبيب النصرانى واشتغل عليه ثم قدم دمشق وخدم المعظم الأيوبى فكان يحترمه . اعتمد ابن صقلاب على طب جالينوس ، فكان يستحضر من كلامه شيئا كثيرا . وقد توفى عام ٦٢٥ هـ (١٢٢٨)(٢)

يعقوب بن اسحق اسعد الدين

طبيب مصرى يهودى ولد بالمحلة الكبرى وأثنى عليه كثيراً ابن أبى أصيبعة الطبيب . رحل الى دمشق فى خريف ١٢٠١ حيث دخل فى جدل طبي مع زملائه الأطباء ولا سيما مع صدقة بن مناجح . ألف كتبا فى الطب فى العربية ومن أهمها

---

(١) فهرس بولس سباط ، المخطوط رقم ٢٥٠٧

(٢) الصفدى : الوافى بالوفيات جـ ٧ قسم ٢ .

« قوانين الطبايب » وكتاب النزه وهو عبارة عن أسئلة فى الطب وجهها للطبيب صدقة وقد توفى فى أوائل القرن ١٣ (راستون ص ٦٦٥) .

عبد الله بن على شرف الدين

لقب بشيخ الطب فى مصر . أخذ الصناعة عن الموفق بن العين زربى[١] ، خدم العاضد بالله الأيوبى وتوفى عام ٥٩٢ ﻫ (١١٩٥) .

هبة الله بن صدقة بن هبة الله الاسوانى

طبيب نشأ فى القاهرة وتعلم فيها الطب وتزعم الأطباء (من المحتمل فى عصر العاضد الأيوبى وتوفى عام ١٢٤٤ م (الطالع السعيد ص ٣٩٦) .

أبو المنى بن أبى نصر بن حفاظ (حافظ) الكوهين

ويعرف بالهارونى العطار الإسرائيلى وهو صيدلى مصرى عاش فى أخريات أيام الأيوبيين وأوائل العصر المملوكى (ح ١٢٦٠) . كتب قبل وفاته رسالة فى الصيدلة لإبنه عنوانها (منهاج الدكان ودستور الأعيان) ، تعتبر من أهم ما ألف فى العربية فى هذا الموضوع ناحيتى المادة والعبارة وقد نالت شهرة طيبة ومازالت تستخدم حتى اليوم . عرف بأنه أفلاطون زمانه ورئيس أوانه). قسمها أبو المنى إلى ٢٥ جزءا وقد رجع فى كتابتها إلى ما ألفه مشاهير الأسلاف فاقتبس مما صنفوه ، واعتمد فيها على تجاربه الخاصة . ويحتمل أنه كان على اتصال بابن البيطار [٢] .

وهنا نتحدث عن موضوع يتصل بالفيزيقا . ففى القرن الثانى عشر ، ويرجح فى أيام صلاح الدين ، كتب عبد الرحمن بن نصر رسالة يسترشد بها المحتسب (وهو الموظف الذى يتولى مراقبة الأسواق) فيما يتعلق بمواد العلاج الطبية ، كما كتب آخرون فى الأثقال والمقاييس والمكاييل ، ولدينا كتاب الارشاد الذى صنفه ابن جامع ، وآخر بعنوان « منهاج الدكان » لكوهين العطار .

---

(١) نسبة إلى عين زربة

(٢) Ma Meyerhof; Notes sur quelques médecins juifs égyptiens. Isis, vol 12, p. 130 1929.

التصوف الإسلامى

قد يكون من المدهش أن يزدهر التصوف فى عصر الجهاد الأيوبى . ففى تلك الأيام يقابلنا العارف بالله عمر بن على المشهور بأبى الفارض (١١٨١ — ١٢٣٥)، المصرى المولد والدار الذى ورى جثمانه التراب فى سفح المقطم ، وظل شعره ولا يزال مرويا يغنى به محدثو الصوفية . وقد توافر على دراسته طائفة من كبار المستشرقين : فون هامر برجستال ، ودماتيو ، ونالينو ، ونيكلسون الذى ترجم طائفة من قصائده إلى الإنجليزية وقصيدته التائية الكبرى تعبر عن صوفية ابن الفارض ، ومطلعها :

نعم بالصبا قلبى لأحبتى	فياحبذا ذاك الشذا حين هبت
سرت فأسرت للفؤاد غزية	أحاديث جيران العذيب فسرت

فيها زهاء سبعمائة وخمسين بيتا ، وهى ليست من العيون الفريدة فى الأدب العربى فحسب ، لكنها ذات شأن عظيم فى دراسة التصوف الإسلامى[١] .

وممن أدركوا العصرين الأيوبى والمملوكى ، عظيم آخر من شعراء مصر ، وهو محمد بن سعيد البوصيرى (ت ٦٩٦ هـ — ١٢٩٦) . فبالرغم عن نسبة شهيرة هذا الشاعر إلى قصيدة واحدة ، فإنه قد بذ جل أقرانه . وكان البوصيرى من تلامذة أبى العباس المرسى (نسبة إلى مرسية بالأندلس) . ومما لا نزاع فيه أن قصيدته بردة المديح المباركة (١٥٩ بيتا) هى أصلح أنموذج للقصيد الدينى . . . مما جعلها مادة للترجمة إلى عدة لغات ، ووضعت على هوامشها طائفة التعليقات الجيدة.

لقد بلغ رجال الصوفية أوج عزهم فى مصر فى أيام صلاح الدين وخلفائه ويشهد بذلك العدد الوفير من الدور التى شيدت لهم والتى عرفت باسم الخوانق (الخانقات) وعلى رأسها الخانقاه الصلاحية التى فتحها صلاح الدين للفقراء الصوفية الذين جاءوا من مختلف البلاد ، ورتب الأوقاف للإنفاق عليهم[٢] .

---

(١) ديوان ابن الفارض : مطبعة حجازى بالقاهرة ، ص ١٦ — ٢٣ .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٤١٥ وما بعدها . أنظر أيضا : محمد عبد المنعم خفاجى : التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر . القاهرة .

وفى طليعة شعراء الصوفية المصريين فى أيام المماليك الأول : العلامة محمد بن أحمد المشهور بابن وفا الاسكندرى الأصل القاهرى المولد .

فن سك النقود

وجد بين المصريين خبراء فى فن سك النقود . وهى صناعة دقيقة تقوم على معرفة الكيمياء وخواص المعادن النفيسة كالذهب والفضة . وكتاب « كشف الأسرار العلمية فى معرفة دار الضرب المصرية »[1] لمؤلفه منصور ابن بعرة الذهبى الكاملى من المخطوطات النادرة التى تلقى الضوء على أسرار صناعة النقود فى فى العصر الأيوبى بمصر . فقد عالج المؤلف فى كتابه خواص الذهب والفضة ودرس عملية استخلاصهما وسكهما دراسة عملية فنية، ثم انتقل من ذلك إلى ضرب النقود بينهما ، ونظام الضرب ، وأوضح نظام القائمين عليها . كتب ذلك بلغة عصره ، وأسلوب أهل صناعته سواء فى ذلك ما يتصل بالمعادن وتصنيعها ، أو مايتصل بالنقود ، مع ذكر المصطلحات وتفسيرها . مما جعل كتابه مرجعا أصيلا عند علماء النميات والباحثين .

ويرجع هذا المخطوط إلى العصر الأيوبى ، فقد أشار المؤلف نفسه إلى السلطان الكامل (جمادى الثانى ٦١٥هـ — ٢٢ رجب ٦٣٥هـ) (١٢١٨ — ١٢٣٨).

ويمكن تقسيم المخطوط الذى احتوى على سبعة عشر بابا إلى قسمين أساسيين:

أولا : قسم يتعلق بالنواحى الاقتصادية فى عصره ، كمصادر الذهب الوارد إلى دور السك المصرية ، واصطلاحات السكة الفاطمية والأيوبية، وعيار الدراهم الكاملية وأنواع الدنانير المتعددة الأيوبية ، ومهمة السك واختصاصاتها .

وثانيا : قسم يتناول العمليات الكيميائية فى معدنى الذهب والفضة ، وتصفية كل منهما وتعديل عيارهما واستخلاصهما من التربة عن طريق الملغمة بالزئبق ،

---

(١) هذا المخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية برقم ٢١ — كيمياء وطبيعة ، يقع فى عشرين صحيفة ، مقاس كل منها ٢٠ × ١٨سم ، والكتابة بالقلم النسخى المعتاد . وقد حقق المخطوط ونشره الدكتور عبد الرحمن فهمى الأستاذ المساعد بجامعة القاهرة — المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة عام١٩٦٦ .

واختبار عيار سبائك الذهب قبل السك ، وخلافها ، وتصفية الفضة وغير ذلك من العمليات الفنية كإعداد قوالب السك التى تضرب بها هذه السكة .

وممن تناولوا ميدان النقود الإسلامية، العلامة المصرى تقى الدين أحمد المقريزى فى القرن الخامس عشر . وعنوان كتابه « النقود القديمة الإسلامية » . حققه ونشره العلامة أنستاس الكرملى فى عام ١٩٣٩ ، وتناول فيه الحديث عن النقود القديمة بأنواعها، ثم النقود الإسلامية منذ أمر الخليفة عمر بضربها ، وأوضح تطور أشكالها وما كان ينقش عليها من رسوم وعبارات فى أيام الأمويين ، وفى الدولة العباسية والطولونية والفاطمية والأيوبية والمملوكية .

ومن البحوث الخاصة فى النميات الإسلامية بمصر ، مادونه العلامة على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية الجديدة (ج ٢٠) .

الفلك

قيصر بن أبى القاسم :

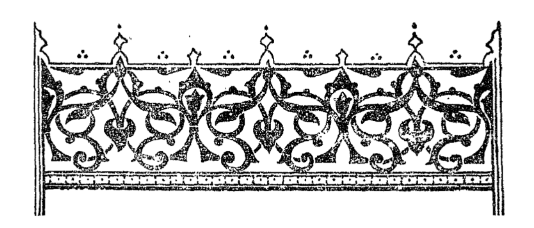
وفى الفلك والرياضيات نبغ قيصر بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن منصور علم الدين الحنفى ، العالم الرياضى والفلكى والمهندس . ولد فى أصفون(١) من أعمال قنا حوالى ١١٧٨/٧٩ م وربما قبيل ذلك، وتوفى فى دمشق عام ٦٣٩هـ/١٢٥١ ، تلقى العلم فى مصر وسورية ثم الموصل متتلمذا للعلامة كمال الدين بن يونس الذى علمه الموسيقى وبعض العلوم ، ولما انتهى من دراسته بالموصل عاد إلى سورية والتحق بخدمة المظفر الثانى تقى الدين محمود صاحب حماه (١٢٢٩ — ١٢٤٤) . والمعروف أن العلامة قيصر بنى لهذا الحاكم عدة طواحين للمياه (الناعورات) على

---

(١) إحدى قرى قنا القديمة وفى الخطط التوفيقية أصفون تقسم إسفا . تقع على شاطىء غربى النيل على تل عال مشرف ثم أصبحت تعرف باسم أصفون المطاعنة . كان إسمها المقدس أمنتى هور Amonti Hor ومعناها موطن الإله هوريس فى الغرب ، واسمها المدنى Hat Snofrou، ومعناها قصر الملك سنوفرو ، وإسمها اللاتينى Asplynis ، واليونانى Asphinis ، والقبطى Sboun أو Hasfoun ومنه اسمها العربى أصفون . (محمد رمزى: القاموس الجغرافى للبلاد المصرية، القسم الثانى، ج ٤ ص ١٠٨) .

نهر العاصى كما شيد له بعض الحصون . وفى عام ١٢٢٥/ ٢٦ صنع كرة فلكية (سموية) انتقلت إلى خزينة كاردينال بورجيا فى فللترى حتى عام ١٨٠٩ ثم آلت إلى متحف نابولى الوطنى حيث توجد اليوم . وقد نقش على الكرة إسم صانعها بالكوفية وعام ٦٢٢ ﻫ ، وتعتبر هذه الكرة الفلكية ثانية أقدم مثيلاتها فى العالم .

والجدير بالذكر أن قيصر بن أبى القاسم كتب رسالة عن نظريات أقليدس (Euclid's Postulates) التى أهداها إلى العالم ناصرالدين الطوسى ، وكان يعرف بتعاسيف الأصفونى .



المقالة الرابعة

الحضارة أيام المماليك

ننتقل بعد ذلك إلى عصر المماليك ، وقد يكون من نواح كثيرة ، أزهى عصور الإسلام فى مصر بالرغم عن الحروب المتواصلة التى أسهمت فيها مصر ضد الصليبيين والمغول فى عشرات من المعارك الدموية . والحق أننا ندين لهؤلاء المماليك لمواقفهم النبيلة فى إنقاذ البلاد من تسلط أوربا علينا ، ومن هجمات المغول الوحشية ، وما أحدثوه من الخراب والنهب والقتل فى العراق وسورية .

وصورة المرحلة المملوكية فى مصر ، ولاسيما فى القاهرة ، لا تتمثل فقط فى تلك العمائر الخالدة التى شيدوها فى العاصمة الإسلامية ، من مساجد ومدارس وخانقات ووكالات وحمامات وأسبلة وغيرها ، ما زال أكثرها باقيا حتى اليوم ، بل تتمثل أيضا فيما خلفه علماء وأدباء تلك الحقبة من مؤلفات ما زالت إلى اليوم تعتبر من أهم مراجع البحوث والدراسات فى شتى ألوان الثقافة .

وسنقصر حديثنا عن أهم مآثر علماء العصر المملوكى بادئين بأمير الأطباء ابن النفيس .

الطب

على بن أبى الحزم المشهور بابن النفيس :

إمام فى عالم الطب ، ولد حوالى عام ٦٠٧ هـ — ١٢١٠ م فى دمشق التى ورثت أمجاد بغداد فى الطب ، وازدهر فيها العلم بفضل حكامها الأيوبيين فى أعقاب أسرة زنكى . وقد ازدهر فى دمشق بيمارستان السلطان نور الدين محمد رحمه الله ولمعت أسماء بعض أطبائه . نذكر من بينهم : فخر الدين الماردينى ، وابن النقاش ، وابن المطران ، ورضى الدين الرحبى (ت ١٢٣٣) ، ومهذب الدين عبد الرحيم المسمى بالدخوار ، (ت ١٢٣٠) وهو أستاذ ابن النفيس وابن أبى أصيبعة (١) .

---

(١) أشار هذا العلامة إلى ستين طبيبا نشأوا فى مصر أو عملوا فيها أو تعلموا فى ديارها بين عام ١٨٠ هـ وسنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) .

تلقى ابن النفيس الطب عن أشهر أساتذة عصره ثم قدم إلى القاهرة مع بعض زملائه للعمل فى بيمارستان المنصور قلاوون ، فلمع اسمه وشيد دارا بالقاهرة وفرشها بالرخام حتى إيوانها ، وكان كثير الاجتماع بأهل العلم والطب فى داره[1]. كما اتجه إلى البحث والدراسة والتأليف المبتكر . وقد مرض ابن النفيس ستة أيام ، وغادر الدنيا فى يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة سنة سبع وثمانين وستمائة بالقاهرة ولم يكن متزوجاً ، ووقف داره وكتبه على البيمارستان المنصورى الذى عمل فيه .

وقد روى أنه قال : لو لم أعلم أن تصانيفى تبقى مدة عشرة آلاف سنة ما وضعتها . ومن المؤسف حقا أنه لم يبق من فيض كتاباته إلا النزر اليسير ، ويعرف منها الآتى :

١ — كتاب الشامل فى الطب ، ودلت فهرسته على أنه كان فى ثلاثمائة سفر . وبيض منها ثمانين سفرا وهو موسوعة كبيرة تضاهى كتاب الحاوى للرازى .

٢ — كتاب المهذب فى الكحل ، موجود بمكتبة الفاتيكان .

٣ — كتاب المختار من الأغذية ، موجود بمكتبة برلين .

٤ — شرح فصول أبقراط . موجود فى بعض مكتبات أوروبا .

٥ — شرح تقديمات المعرفة .

٦ — تعليق على كتاب الأوبئة لأبقراط ، موجود فى مكتبة أياصوفيا .

٧ — شرح تشريح جالينوس . (ليس من المؤكد نسبته إلى ابن النفيس) .

٨ — شرح مسائل حنين بن إسحق .

٩ — شرح كتاب القانون لابن سينا .

١٠ — شرح مفردات القانون ومنه نسخة فريدة فى آياصوفيا .

١١ — كتاب موجز القانون — ترجم إلى التركية والعبرية وموجود منه نسخ شتى فى مكتبات أوروبا .

---

(١) د . بول غاليونجى : ابن النفيس . سلسلة كتب أعلام العرب رقم ٥٧ القاهرة .

١٢ — تفاسير العلل وأسباب الأمراض .

١٣ — شرح الهداية فى الطب .

١٤ — شرح تشريح القانون . يقول عنه الدكتور بول غليونجى أنه مفخرة الطب العربى .

وله تآليف أخرى فى غير الطب ، كالعلوم الدينية والنحو ، كالرسالة الكاملية فى السيرة النبوية . ومختصر فى علم أصول الحديث .

وكتاب ابن النفيس الموسوم بشرح تشريح القانون من أجل المختصرات فى التشريح وله أهمية تاريخية جليلة لأن ابن النفيس فى وصفه للرئة قد سبق غيره إلى اكتشاف الدورة الدموية الرئوية وإلى وصفها وصفا علميا صحيحا . مما يدل على أن هذا الطبيب المصرى اهتدى إلى حقيقة الدورة الدموية الصغرى ، دورة الدم من البطين الأيمن فى القلب إلى الرئتين ثم إلى البطين الأيسر ، قبل أن يكشفها الأوروبيان: ميشيل سرفتس (١٥١١ — ١٥٥٣) ، وريالدو كولومبو سنة ١٥٥٩ ، فسبقهما إلى ذلك بقرابة ثلاثة قرون .

لقد ظل كتاب العرب يتناقلون الآراء عن تشريح الرئة والدورة الدموية دون أن يبدوا رأياً فيها أو يتأكدوا من صحتها إلى أن قام ابن النفيس بعد أن درس قانون ابن سينا درسا مدققا وأبان فيه وجوده الخطأ والصواب فى كتابه المسمى « شرح القانون » فانتقد آراء ابن سينا فى وصف العروق الموصلة بين الرئة والقلب ووظائفها ووظيفة الرئتين . وإليك ما قاله ابن النفيس :

« إن القلب لما كان من أفعاله توليد الروح وهى إنما تكون من دم دقيق جدا شديد المخالطة لجرم هوائى فلابد وأن يحصل فى القلب دم دقيق جدا وهواء ليمكن أن يحدث الروح من الجرم المختلط منهما . وذلك حيث تولد الروح هو فى التجويف الأيسر من تجويفى القلب ولابد فى قلب الإنسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يتلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء فإن الهواء لو خلط بالدم وهو على غلظه لم يكن من جملتها جسم متشابه الأجزاء . وهذا التجويف هو التجويف الأيمن من تجويفى القلب . وإذا لطف الدم فى هذا التجويف فلا بد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث تتولد الروح . ولكن ليس بينهما منفذ فان جرم القلب

هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة أو منفذ غير ظاهر يصلح نفوذ هذا الدم كما ظنه جالينوس . فإن مسام القلب هناك مستحصنة وجرمه غليظ فلا بد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ فى الوريد الشريانى إلى الرئة لينبث فى جرمها ويخالط الهواء ويصفى ألطف ما فيه وينفذ إلى الشريان الوريدى ليوصل إلى التجويف الأيسر من تجويفى القلب وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد منه الروح » .

وقد كرر ابن النفيس آراءه فى الدورة الدموية الصغرى[١] فى خمسة مواضع من كتابه بما يدل على أنه فهمها فهما لا يشوبه شك أو التباس .

كذلك كان كلامه فى وصف الرئة ، وفى تشريح القلب[٢] .

قلنا أنه كان لابن النفيس مؤلفات ومصنفات عديدة فى الفقه والحديث والمنطق واللغة من أهمها كتاب فى التوحيد سماه (الرجل الكامل فى السير النبوية) رد به على رسالة حى بن يقظان لابن سينا انتصر فيه لمذهب علماء الإسلام وآرائهم فى النبوات والشرائع والبعث الجسمانى وخراب العالم . وقد أبدع فيه ودل ذلك على قدرته وصحة ذهنه وتمكنه من العلوم العقلية . ومن غريب التصادف أن ميشيل سرفيتس الذى ادعى أنه مكتشف الدورة الدموية الصغرى فى القرن السادس عشر أى بعد ابن النفيس بحوالى ثلاثة قرون ، كتب اكتشافه فى مقدمة كتابه فى التوحيد . فاعتبر لأجله مارقاً من الدين المسيحى ، فأحرق هو وكتابه بأمر من كلفن . فهل يا ترى اطلع سرفيتوس على كتاب ابن النفيس وتعاليمه فانتحلها ، وكان ذلك سببا لهلاكه[٣] .

---

(١) دكتور سامى حداد : المرجع السابق ذكره ص ٢٧٠

(٢) الدورة الدموية الصغرى تعبير فسيولوجى يطلق على دورة الدم فى الرئتين . فان الدم بعد وصوله إلى التجويف الأيمن من القلب يدفعه القلب فى الشريان الرئوى إلى الرئتين حيث يطهر وينقى بأخذه الأوكسجين من الهواء الذى فى خلايا الرئتين ويطلق ثانى حامض الكربون الموجود فيه ، ثم يعود فى الوريد الرئوى إلى التجويف الأيسر من القلب ، وكان جالينوس أول من حاولوا فهم الدورة الدموية .

(٣) الدكتور سامى حداد : مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، من هو ؟ مجلة المقتطف أكتوبر عام ١٩٣٦ ، ص ٢٦٤ — ٢٧١ .

ومن راجع كتابة سرفيتوس لايسعه إلا أن يستنتج أنها ترجمة تكاد أن تكون حرفية عن قول ابن النفيس ، وسرفيتس هذا كتب باللغة اللاتينية .

ومن جميل ما حكى عن طبيبنا المصرى أنه دخل مرة إلى الحمام الذى كان فى الزهرية فى القاهرة ، فلما كان فى بعض تغسيله خرج إلى مسلخ الحمام واستدعى بدواة وقلم وورق وأخذ فى تصنيف مقاله فى النبض إلى أن نهاها ثم عاد ودخل الحمام وكمل استحمامه !

صدقة بن إبراهيم المصرى الشاذلى :

طبيب العيون المصرى الذى نختتم به أطباء الرمد الكبار ممن لمعوا فى خلال العصور الوسطى . عاش صدقة فى مصر فى خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر وألف كتابا هاما وافيا عن مرض الرمد عنوانها وكتاب العمدة الكحلية فى الأمراض البصرية، وقد قسمه إلى خمسة أقسام : أولها — تشريح ووظائف العين. ثانيها — أشياء عامة طبية ورمدية ، ثالثها — الأمراض المرئية فى العين وتشخيصها ومعالجتها ، رابعها — الأمراض غير المرئية ، خامسها — وسائل طبية متعلقة بالطب والرمد .

وفى هذا الكتاب ، أوضح صدقة سبعة وعشرين نوعا من الإحساس ، وثانية أحوال للبصر ، كما أنه أوضح أيضاً خواص عين الإنسان والمخ البشرى قائلا : إن معظم أوجاع العيون تنشأ عن المخ ، وبين كذلك الفارق بين عيون الأجناس البشرية (الزنوج ، الترك ، البدو ، وأهالى المدن) ، وقد تحدث الشاذلى عن انتشار أمراض العيون بين المصريين ونسب ذلك إلى كثرة التراب والرمال وإلى أسباب أخرى ! ولا يخفى أن أول طبيب غربى عنى بأمراض الرمد (التراخوما) وانتشارها بين المصريين ، هو بروسبرو البينى (١٥٥٣ — ١٦١٧) حينما لاحظ ذلك حوالى عام ١٥٨٠ .

ولا شك أن كتاب الطبيب صدقة بن إبراهيم يعتبر من المؤلفات الممتازة لشموله وأصالته النسبية . وقد اتبع فى كتابته منهجاً علمياً يتبعه أطباء هذا العصر فيبدأ بتشخيص المرض أولا قائلا : هذا المرض قابل للشفاء ، أو يحتمل الشفاء ، أو لا يرجى منه الشفاء . ومن حسن التوفيق أن يجد هذا الكتاب العناية التى يستحقها بين علماء الغرب ، فقام الدكتور هيرشبرج المستشرق المشهور بدراسته وكتب رسالة مسهبة فى تحليل فصوله تحليلا وافياً .

مهذب الدين محمد بن أبي الوحش

عرف بابن أبي حليقة . استقر في رياسة الأطباء في ١١ رمضان سنة ٦٨٤ هـ (١٢٨٥) ، ومعه أخواه علم الدين إبراهيم وموفق الدين أحمد وقد استقر مهذب الدين في تدريس الطب بالماريستان(١) .

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إدريس :

عرف بألقابه الصنهاجي القرافي البهنسي : ولد بالبهنسا من أصل بربري على حافة الصحراء الغربية بالقرب من بني مزار ثم أصبح من أشهر علماء الفقه في مصر ومات في دير الطين بالقرب من المعادي حوالي عام ١٢٨٥ . كتب رسائل عديدة في الفقه المالكي دافع فيها عن الإسلام، وفند فيها مزاعم اليهود والنصارى ، وشهر برسالته التي كتبها لبولس الراهب مطران صيداء . ومن أهم بحوثه العلمية « كتاب الاستبصار فيما تدركه الأبصار » ، كتبها تلبية لطلب السلطان الكامل الأيوبي ليبعث بها إلى الامبراطور فردريك قبل عام ١٢٢٩ وقد تحدث فيها عن قوس القزح وكانت أولى الرسائل التي ألفت في هذا الموضوع الفيزيائي الهام(٢) .

أمين الدولة يعقوب بن اسحق بن القف :

أحد تلاميذ الطبيب ابن أبي أصيبعة . اشتهر في سورية وأهم مؤلفاته « كتاب الجامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض » ، ورسالة في الجراحة عنوانها « كتاب العمدة في صناعة الجراحة » وهي مقسمة إلى جزئين ، أحدهما نظرى والآخر عملي ، ويحتوى كل منهما على عشرة فصول . له أيضاً « كتاب الأصول في شرح الفصول » اعتمد فيه على طب أبقراط وقد أفاد كثيراً من مؤلفات ابن سينا الطبية ولا سيما كتاب « القانون والإشارات » ، توفي حوالى ١٢٨٦م(٣) .

---

(١) المقريزي : السلوك جـ ١ ص ٧٥٤ .

(٢) Aydin M. Sayili : Al—Qarafi and his explanation of the rainbow. Isis 32, p, 16 - 26

(٣) Sarton : Intr. vol. 77, part II. p. 1099

انظر أيضاً كتاب ليكلرك : الطب العربي جـ ٢ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ — عام ١٨٧٦ .

الفضل (المفضل) بن هبة الله بن على الحميرى الاسنائى :

اشتهر بابن الصفيعة (ت حوالى ٦٧٠ هـ / ١٢٧١) . اشتغل أولا بالفقه والأصول ثم عنى بالمعقولات ، فغلب عليه الطب والحكمة والمنطق ، وتخرج فى الطب على الشيخ علاء الدين بن النفيس المشهور . صنف كتاباً فى الترياق .

ابراهيم بن أبى الوحش بن أبى حليقة :

رئيس الأطباء بمصر والشام ، كان نصرانيا فبلغ فى دينه أنه غين للبطريركية فلم يوافق ودخل فى الإسلام، واستقر رئيس الأطباء . وهو أول من عمل شراب الورد الطرى وعالج به الناس . وقيل أن تركته بلغت ثلاثمائة ألف دينار . توفى عام ٧٩٨ هـ (١٣٠٨)[١] .

شمس الدين محمد بن دنيال الكحال :

وفد على مصر فى أيام الظاهر بيبرس واحترف الكحالة فى حانوت داخل باب الفتوح ، وكان يزدحم عليه المرضى فى أول أمره ، ثم انصرف عن مهنته ليعمل فى (طيف الخيال) (خيال الظل) الذى برع فيه . وقد ذكر أن الملك الأشرف خليل بن قلاوون قبل أن يلى السلطنة أعطاه فرسا ليركبه لأنه كان فى خدمته فأخذه ، وبعد أيام رآه على حمار مكسح ، فقال « يا حكيم أما أعطيناك فرسا لتركبه ؟ » . فقال « نعم بعته وزدت عليه واشتريت هذا الحمار » . فضحك منه الأشرف وأعطاه غيره[٢] .

سعيد بن منصور بن سعد الاسرائيلى عز الدولة :

اشتهر بابن كمونة وهو فيلسوف وطبيب وكيميائى . عاش فى مصر فى منتصف القرن ١٣ واعتنق الإسلام . ألف عدة رسائل فيها الحكمة الجديدة ، أهمها « خلود الروح » ، اعتمد فيها على رسالة لابن سينا ، (كتاب الإشارات والتنبيهات) جعل

---

(١) أحمد عيسى : معجم الأطباء ص ٥٣ . ذكره أيضا ابن حجر العسقلانى فى الدور الكامنة ص ٧٥ رقم ٢٠٠ .

(٢) ابن حجر العسقلانى : الدور الكامنة ، والمنهل الصافى ج ٣ ص ١٥٣ .. أنظر أيضا :

عنوانها (التلويحات) اعتمد فيه على السهر وردى . وله رسالة فى الرمد عنوانها «الكافى الكبير» وأخرى فى الكيمياء وعنوانها (تذكرة فى الكيمياء) . وبعدما اعتنق ابن كمونة الإسلام ، ألف رسالة قارن فيها بين الإسلام واليهودية والمسيحية وجعل عنوانها تنقيح الأبحاث فى البحث عن الملك الثلاث . ذكر بروكلمان مخطوطاته[1] .

أبو منصور سليمان بن حفاظ الكوهين :

طبيب مصرى ، ألف موسوعة فى الطب عنوانها « كتاب المنتخب» ، احتوت على سبعة أقسام أولها فصل عام ، ثانيهما : البسائط ، ثالثها : الأمراض العامة ، رابعها : أمراض بعض أعضاء الجسم ، خامسها : السموم والدهون ، سادسها : أضداد السموم، سابعها : Medical aphorism of Galen and Others .

ويلاحظ أن هـذا المنتخب احتوى على موضوعات كثيرة ذكرها كوهين العطار صاحب منهاج الدكان[2] توفى حوالى ١٢٩٥ — ٩٦ .

محمد بن الحسين موفق الدين الادفوى :

طبيبا كريم الخلق ، عالج الفقراء والرؤساء دون أجر وكانت له فتوة . له نظم ونثر وكان يكتب بخط حسن ، توفى بادفو عام ٦٩٧ هـ (١٢٩٨)[3] .

محمد بن يوسف عبد الله المصرى :

ألم بالطب والفقه والنحو والمنطق، درس بالمعزية بمصر وبالشريفية بالقاهرة وشرح « منهاج الأصول »[4] .

---

(١) بروكلمان : جـ ١ س ٤٣٧ و ٤٥٤ و ٥٠٧ . أنظر أيضا :
Sarton : Vol. II, v. II p. 875

(٢) Sarton : Intr. Vol. II Part II, p. 1098.

(٣) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٨ س ٥٠ .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ١ س ٣١٤ .

ابراهيم بن هبة الله بن على الاسنوى :

قرأ على الشيخ عز الدين عبد الرحمن بن يوسف الأسفونى، درس الجبر والمقابلة كما درس الطب على الحكيم شهاب الدين المغربى . توفى بالقاهرة حوالى ٧٢١ ﻫ (١٣٢١) (١) .

شهاب الدين أحمد بن المغربى :

والد الرئيس جمال الدين إبراهيم بن المغربى رئيس الأطباء بمصر والشام . قدم مصر واستوطنها . ألم بالطب أكثر من بقية ما عرف به من ألوان المعرفة . أقرأ العلم وباشر المرض وأحسن العلاج ، وكان موفور الحظ من السلطان والأمراء والوزراء ، ولا نعرف متى توفاه الله .

جمال الدين ابراهيم بن أحمد المعروف بالمغربى :

رئيس الأطباء عند الملك الناصر محمد بن قلاوون . كان أبوه أوحد أهل زمانه فى الطب ومقربا عند السلطان ونال منه ما لم ينل من غيره . توفى عام ٧٠٤ ﻫ أو ٧٥٦ ﻫ (١٣٣٩ — ١٣٥٥) (٢) .

اسماعيل بن ابراهيم بن سليمان المقدسى :

عنى بالطب فمهر فيه وأخذه عن عماد الدين النابلسى وغيره ، اشتهر بحسن المعالجة . توفى عام ٧٣١ ﻫ (١٣٣١) .

محمد بن محمد بن عبد الرحمن :

طبيب تونسى الأصل ، عاش فيما بين عامى ٦٦٤ ﻫ -٧٣٨ﻫ (١٢٦٦-١٣٣٧) ولى نيابة الحكم بالقاهرة مدة فملأ المنصب عدلا . تولى تدريس الفقه بالمدرسة الناصرية والجامع الطولونى ودرس بالمدرسة المنكوتمرية ثم عمل طبيبا بالماريستان، وألقى الدروس فيه نيابة عن رئيس الأطباء (٣) .

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٨ ص ٦٢ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٧٠ و٥٠١ و٦٤٠ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢١١ .

محمد بن ابراهيم المعروف بابن البرهان الجرائحى :

قرأ الطب على بن أبى النفيس وغيره ، ثم قرأ الحكمة وكان يتردد على شمس الدين الأصبهانى من القاهرة والى الخانقاه القوصونية بالقرافة . مهر طبيبا ومتفلسفا ، وتطلع إلى السكيمياء فتحدث فيها ، وصحح أقوال المتقدمين فى صحتها . كان يرى فى نفسه الغضاضة لتقدم ابن المغربى اليهودى عليه فى رياســـة الأطباء ، وسأل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يعفيه من الخدمة ، فقال له « ما نفصلك أنت عزيز كريم ، ونعرف أنه أفضل من إبراهيم بن المغربى وأحق ، ولكن إبراهيم صاحبنا وله علينا حق الخدمة وطيب قلبه ، فاستمر ورأى أنه لم يبق له إلا مصافاة ابن المغربى وخطب إليه أخته فتزوج بها ، وتوفى فى عهد السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل فى عام ٧٤٣ ﻫ (١٣٤٢) .

محمد بن أبى بكر محمد الكمال بن الزين القاهرى :

طبيب ، تدرب على أبيه الطبيب وغيره ، وميزه بعض الأطباء على والده .
توفى عام ٧٤٨ ﻫ (١٣٤٧) .

شمس الدين بن محمد بن برهان الدين ابراهيم الشهير بابن الأكفانى :

طبيب لامع ولد فى سنجار ولذا يعرف بالسنجارى وأيضا المصرى . يعتبره العلماء خاتمة أطباء العيون المشهورين فى العصر المملوكى، وقد توفى أثناء الطاعون الذى اجتاح القاهرة سنة ٧٤٩ ﻫ (١٣٤٨) . قال عنه صلاح الدين الصفدى وهو أحد تلاميذه ، بأنه اشتهر بكافة العلوم الطبيعية وفى الرياضيات وعلم الهيئة وقد درس عليه كتاب اقليدس (المجسطى) ، وكتبا أخرى ، وكانت له إصابات غريبة فى العلاج وكان أديبا وشاعرا سريع الخاطر وكان أنيقا نظيفا فى لباسه وبيته . فاق زملاءه فى معرفته بأصناف الجواهر والأحجار النفيسة . عمل طبيبا ومشيرا لناظر بيمارستان قلاوون بالقاهرة .

ألف ابن الاكفانى عدة كتب ، منها « إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد » ، والباب فى الحساب ، وغنية اللبيب عند غيبة الطبيب ، ونخب الذخائر فى معرفة

أحوال الجواهر (١) ، وكتاب « كشف الرين فى أحوال أمراض العين » (٢) ، وقد رتبه على ثلاث مقالات تشتمل على الفصول التالية (٣) :

الأولى : فى كليات أحوال العين وحدها وخواصها ومزاجها وأحوالها وحفظ صحتها ومعالجة أسقامها ، والثانيـــة فى ذكر أمراض العين وأسبابها وعلاماتها وعلاجاتها الجزئية وأمراض الجفن وطبقات العين السبعة ورطوبتها الثلاث وأعصابها وعضلاتها والتشنج فى العين ، والثالثة فى الأدوية المفردة مرتبـة على حروف المعجم والعقاقير المركبة وآخرها فصل فى أكحال العين .

ناصر الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن صغير :

طبيب عاش بين ٦٩١ هـ — ٧٤٩ هـ (١٢٩٢ — ١٣٤٨م) .

درس الطب على والده ، والأدب على الشيخ علاء الدين القونوى . ونشأ فى بيت أطباء وفضـلاء ، وكان يلعب بالعود لأناس يختص بهم ويتوفر على قربهم وتوفى إثر إصابته بالطاعون عام ١٣٤٨ . كان من أطبـاء الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدى فريضة الحج بصحبته عام ٧٣١ هـ ، وحضر من القاهرة إلى دمشق لمداواة الأمير علاء الدين ألطنبغا الماردانى نائب حلب فما لحقه حتى كان المرض قد تمـكن منه ، فعاد إلى دمشق يمرض فى مدرسـة الدنيسرى حوالى خمسين يوماً (٤) .

برهان الدين إبراهيم بن عبد الله بن على بن خلف الرشيدى المصرى :

طبيب تفقه على الشيخ علم الدين العراقى وأخذ النحو عن الشيخين بهاء الدين بن النحاس وأبى حيان ، والمنطق عن الشيخ سيف الدين البغدادى وشغل بالعلم ، وممن أخذ عنه القاضى محب الدين ناظر الجيش . عاش بين ٦٧٣ هـ — ٧٤٩ هـ

---

(١) حققه ونشره الأستاذ مارى الـكرملى البغدادى . المطبعة العصرية ١٩٣٩ .

(٢) مخطوط رقم ٤٦ طب حليم بدار الـكتب المصرية .

(٣) د . سامى خلف حمارنه : تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، ص ١٦ — ١٧ القاهرة ، ١٩٦٧ .

(٤) الصفدى : الوافى بالوفيات :

(١٢٧٤ — ١٣٤٨ م) . كان طبيباً خيراً متودداً كريماً ماشياً على طريقة السلف فى طرح التكلف وكان يعرف الحساب أيضاً . توفى بالقاهرة شهيداً بالطاعون[١] .

الحسين بن منصور بن على الحسام الاسنائى :

طبيب عاش فى أواخر المائة السادسة أو أوائل السابعة . اشتغل بالطب فكان به قيما وعرف بالمعرفة . ألم بالمنطق والصنائع والهندسة والحساب وعلم النجوم وحقائق الطب كان يطبب ويعطى ثمن الأدوية لمن يطلبه .

شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن المصرى :

طبيب ولى تدريس الطب فى الجامع الطولونى وتوفى حوالى ٧٧٢ هـ (١٣٨٠) .

صلاح الدين يوسف بن محمد المعروف بابن المغربى :

طبيب ، ينسب إليه جامع ابن المغربى بشارع الخليج الناصرى بجانب بركة قرموط ، تولى رياسة الأطباء . توفى عام ٧٧٦ هـ (١٣٧٤)[٢] .

محمد بن محمود بن عبد الله بن جمال الدين النيسابورى ثم المصرى :

اشتغل بالطب فى بلاده ثم قدم إلى القاهرة وأخذ من جلال الدين جاد الله ، وولى مشيخة خانقاه سعيد السعداء ثم ولى إفتاء دار العدل . توفى عام ٧٩١ هـ ، (١٣٨٩) .

على (علاء الدين) ابن عبد الواحد بن محمد المعروف بابن صغير :

رئيس الأطباء بمصر ، برع فى صناعة الطب وانتهت إليه المعرفة والرياسة فى الطب زمانه ، وتخرج بجماعة من علماء زمانه حتى برع وساد ووصف بأنه كان أعجوبة دهره . توجه إلى حلب صحبة الملك الظاهر برقوق لأنه كان طبيبه[٣] توفى بحلب عام ٧٩٦ هـ (١٣٩٤) .

---

(١) طبقات ابن شهبة ، س ٧٨ .

(٢) الدرر الكامنة وحسن المحاضرة جـ ١ س ٣١٥ .

(٣) المقريزى : السلوك جـ ٣ س ٢٥٦ .

محمد بن عمار بن أبى المعروف بأبى بكر :

بغدادى الأصل . قدم إلى القاهرة فى أخريات الدولة المؤيدة ، اشتهر بالطب والحساب ، وعالج السلطان المؤيد فى مرض وفاته ثم رحل إلى الشام ، فتركيا ومات بها عام ٨٢٠ هـ (١٤١٧) .

غرس الدين إبراهيم بن خليل بن علبوة الاسكندرانى :

رئيس الأطباء[١] وابن رئيسها برهان الدين . توفى عام ٨٢٢ هـ (١٤١٩) .

محمد بن اسماعيل بن ابراهيم أبو الوفا القاهرى :

طبيب ، ولد بالقاهرة ونشأ بها وتدرب فى الطب وصار من ذوى النوب بالبيمارستان وصار ممن يشار إليه بالبراعة والتدبير فى العلاج . توفى ٨٣٠ هـ (١٤٢٧ م) .

سراج الدين عمر بن منصور البهادرى :

طبيب انتهت إليه الرياسة فى علم الطب وتقدم على أقرانه ولكنه لم يتكسب بهذه الصناعة . عاش بين ٧٦٢ هـ — ٨٣٤ هـ (١٣٦٠ — ١٤٣١ م[٢]) . عمل فى البيمارستان المنصورى ومسجد ابن طولون .

عبد الوهاب بن صدقة القوصونى القاهرى :

والد الرئيس الشمس محمد . برع فى الطب وتخرج به جماعة منهم قريبه العلا على بن فتح الدين بن قجامق . توفى عام ٨٣٥ هـ (١٤٣٢[٣]) .

ناصر الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن الشمس :

طبيب ولى قضاء الاسكندرية مدة ، وعاش بين عامى (٧٥٧ هـ — ٨٣٧) (١٣٥٦ — ١٤٣٤) . مات بالقاهرة وقد تجاوز السبعين بل قيل أنه قارب الثمانين[٤] .

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٣٣٩ .
(٢) المقريزى : السلوك جـ ٤ ص ٢٢٥ . انظر أيضا السخاوى : الضوء اللامع .
(٣) السخاوى : الضوء اللامع : (٤) السخاوى الضوء اللامع .

محمد بن علي بن عبد الكافي بن عبد الواحد بن صغير الشمس :

طبيب تميز فى صناعته ، وله فى الطب كتاب يسمى الزبد ، عرضه ابنه جملة محافيظه على ابن جماعة وغيره فى عام ٨١٦ ﻫ (١٤١٣) كان أحد أطباء المارستان وبخدمة السلطان . توفى عام ٨٣٩ ﻫ (١٤٣٥) .

ابراهيم بن فرج الله بن عبد الله الكافي الاسرائيلى :

طبيب إسرائيلى تنسك فى دينه مع حسن علاجه لمعرفته بالطب وتكسبه به . توفى عام ٨٤٤ ﻫ (١٤٤٠)[١] .

محمد بن أحمد بن بطيخ القاهرى (بدر الدين) :

رئيس الأطباء فى مصر . توفى عام ٨٤٨ ﻫ — ١٤٤٤ م .

عمر بن محمد بن عبد الواحد السراج :

ابن الرئيس العلا القاهرى . تميز فى الطب وعالج المرضى واستقر فى الرياسة قليلا . توفى عام ٨٦٧ ﻫ — ١٤٦٢ .

يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن أبى الفتيان .

طبيب مات عن قرابة مائة سنة ويعرف بالدوادارى . توفى عام ٨٨٣ ﻫ — ١٤٧٨ م .

تاج الدين عبد الوهاب بن شمس الدين الشنادى :

طبيب ولد عام ٧٦٦ ﻫ (١٣٦٤) . تلقى علوم الدين على شيوخ عصره وأخذ الكحالة عن الشيخ على السراج البهادرى ، واشتهر بالتنجيم . اشتغل كحالا فى البيمارستان وعرف بكفاءته وحبه لتلاميذه ودرت عليه مهنته المال الوفير بيد أنه كان يجزل العطاء لأعمال البر . توفى عام ٨٥١ ﻫ (١٤٤٧) وصلى على جثمانه فى جامع الحاكم بأمر الله (٢) .

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج ٤ ص ١٠٢١ .

(٢) التبر المسبوك ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .

محمد بن محمد بن علي بن عبد الواحد بن الشمس :

طبيب وحفيد رئيس الأطباء ، ويعرف كسلفه بابن الصغير ككبير . تلقى العلوم عن مشايخ عصره ، احترف الطب وأخذ فيه عن أبيه ، والعز بن جماعة ، واستقر فى نوبة بالمارستان ، وسافر بصحبة السلطان إلى آمد رفيقاً لغيره من الأطباء وحج غير مرة . توفى عام ٩١٨ ﻫ (١٤٨٦م) عن ست وتسعين سنة [١].

محمد بن يعقوب بن عبد الوهاب الشمس (النفهنى) :

كحال قاهرى . تدرب على الطب والكحل ومهر فيه وصارت له نوبة فى الماريستان . عاش بين ٨١٥ ﻫ و ٨٩٦ ﻫ (١٤١٢ — ١٤٩١) [٢] .

شمس الدين محمد بن محمد بدر الدين القوصونى القاهرى :

طبيب تميز فى صناعته وبحسن الدربة والعلاج والخبرة . كان حسن العشرة وسخياً . توفى بعد عودته من تركيا فى رشيد يوم الأربعاء ١١ صفر سنة ٩٣١ ﻫ . وتذكر بعض المصادر عام ٩١٧ ﻫ (١٥١١ م) ودفن بكوم الأفراح .

محمد بن عبد الوهاب بن صدقة القوصونى :

ابن عبد الوهاب بن صدقة الطبيب وابن أخت الكحال ابن عبد الحق . مات والده عام ٨٣٥ ﻫ — ١٤٣١ ، فحفظ القرآن وتعلم وتدرب فى صناعة الطب وتميز فيها ثم ترقى إلى رياسة الأطباء وحمد الناس أدبه وحسن علاجه . أنشأ دوراً بالقرب من جامع الخطيرى ثم احتاج لبيعها وأنشأ أيضاً بيتاً برأس حارة زويلة بالقرب من الخرنفش . عاش بين ٨٣٤ ﻫ و ٩١٧ ﻫ (١٤٣٠—١٥١١) [٣]

أحمد بن إسماعيل بن صدقة القاهرى :

طبيب ولد بالقاهرة . حفظ القرآن وكتب فى فقه الحنفية وغير وحج غير مرة

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع

كانت له معرفة تامة فى الطب وكان يعالج الأكابر وقد عرف بابن الصايغ . عاش بين ٦٤٤ هـ و ٩٤٠ هـ (١٤٤٠ — ١٥٣٣) [١] .

بيمارستان السلطان قلاوون

مر بنا ذكر أهم الأطباء الذين مارسوا الطب فى هذه المؤسسة الخيرية ، وسنفصل الكلام عنها .

كان من أهم مآثر السلاطين المماليك ، إنشاؤهم بيمارستانات أو دور الاستشفاء وكان الأمير القائد قلاوون الألفى قد مرض مرضاً شديداً فى أثناء قيامه بإحدى الحملات فى الشام ، وأدى مرضه هذا إلى معالجته بأدوية جلبت له من مارستان نور الدين محمود بك زنكى بدمشق ، فنذر إلى الله أن هو أبل من مرضه ليبنين بالقاهرة مارستانا يحاكى مارستان عاصمة الأمويين ، وقد كان واستجاب الله دعاءه ، فشيد مستشفاه ومدرسته وقبته العظيمة بعد ما اعتلى العرش وأصبح يعرف بالسلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى (١٢٦٩ — ١٢٩٠ م) .

بدىء فى بناء البيمارستان فى أول ربيع الثانى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤) وتم إنشاؤه فى حوالى ثمانية أشهر [٢] بعد أن ولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أمر عمارته ويقع بشارع بين القصرين أمام قبة الصالح نجم الدين أيوب والمدرسة الظاهرية وشارع بيت القاضى ويشمل المستشفى والقبة والمسجد والمدرسة . وقد أقيم هذا المستشفى على جزء من أرض المستشفى القديم الذى كان موضعه دار الأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية فاستولى السلطان عليها وعوضها عنه قصر الزمرد برحبة باب العيد الع مبلغ من المال حمل إليها .

وبعد الفراغ من بناء المارستان قال السلطان قلاوون :

---

(١) الغيلى : السناء الباهر ، ص ٣٩١

(٢) يختلف هذا التاريخ مع ماذكره المقريزى الذى أورد أن البدء فى البناء كان فى فترة ربيع الأول سنة ٦٨٣ هـ (١٨ مايو سنة ١٢٨٤) وان انتهاءه كان بعد ١١ شهراً وأياماً ، على أن الكتابات المنقوشة على جدران وأعتاب أبواب القبة والمدرسة لاتقر التاريخ الذى ذكره المقريزى .

« إنى بنيته لوجه الله لمعالجة المرضى من جميع الطبقات والأجناس ممن هو مثلى أو دونى للغنى والفقير للحر والعبد للذكور والإناث » .

وبقى المارستان يؤدى وظيفته إلى أن كانت سنة ٧٠٣ ﻫ (١٣٠٣—١٣٠٤) حينما حدث زلزال خرب كثيرا من عمائر مصر فسقط الجزء الأعلى من مئذنة قلاوون فأمر ابنه السلطان الناصر محمد بتجديدها . وكتب على قاعدتها مايشير إلى هذا الإصلاح .

وقد وصف المؤرخ المقريزى هذا المارستان فقال :

أنه دار ذات إيوانات أربع وصحن واسع ، ولما أنجزت عمارتها وقف عليها الملك المنصورى . وقال : قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى وجعلته وقفا على الملك والملوك والجندى والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والذكور والإناث ورتب فيه العقاقير والأطباء وساير ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض ، وجعل فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى ، وقرر لهم المعاليم ونصب الأسرة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج إليها فى المرض ، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعا ، فجعل أواوين الماريستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها ، وأفرد قاعة لمرضى الرمد ، وقاعة للجرحى وقاعة لمن بها إسهال ، وقاعة للنساء ، ومكانا للمبردين ، ينقسم بقسمين ، قسم للرجال وقسم للنساء . وجعل الماء يجرى فى جميع هذه الأماكن وأفرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ، ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال والشيافات ونحوها . ومواضع يخزن فيها الحواصل . وجعل مكانا يفرق فيه الأدوية والأشربة ، ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء دروس الطب ، ولم يحص عدد المرضى بل جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غنى وفقير . ولم يحدد مدة لإقامة المريض به بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج إليه . وقد أوقف عليه الملك المنصور من الأملاك بديار مصر وغيرها مايقرب ألف ألف درهم فى كل سنة .

وقد عمل فى هذه المستشفى عدد كبير من أشهر أطباء مصر ، نذكر من بينهم : ابن الأكفانى محمد بن إبراهيم ، عمر بن منصور بن عبد الله السراج (ت ١٤٣١) ، عبد الوهاب بن محمد تاج الدين الشاوى (ت ١٤٤٧) . زين الدين عبد المعطى كبير جراحى الماريستان، شهاب الدين بن الصائغ ، مدين بن عبد الرحمن القيسونى وغيرهم .

وحينما زار الرحالة ابن بطوطة مصر فى عام ٧٣٧ هـ — ١٣٢٧ ، شاهد المارستان المنصورى ، فقال عنه : « . . . أما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون ، فيعجز الواصف عن محاسنه . وقد أعد فيه من المرافق والأدوية مالا يحصى ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم » .

وفى حوالى عام ١١٧٠هـ (١٧٥٦) جدد الأمير عبد الرحمن كتخدا المارستان إلا أنه هدم أعلا القبة الكبرى والقبة التى فوق الفسقية أمام باب القبة ، ولم يعد بناءهما بل سقف قبة المدفن فقط وترك الأخرى مكشوفة ولا تزال آثار عمارة كتخدا واضحة فى أبواب القبة والمدرسة المفتوحة على الدهليز الكبير [1] . وفى سنة ١٢٩٧ هـ (١٨٨٠) أزيل سقف القبة الكبرى وأعيد بناؤها على مثال القباب التى شيدت فى أيام قلاوون وبقيت إلى اليوم .

كان المارستان إبان إنشائه خير مثال للعصر الطبى الإسلامى المزهر ، غير أن الأيام قضت عليه حتى صار فى أيام الحملة الفرنسية فى أسوأ حال وأتعسها كما شهد بذلك أطباء الحملة ، بعد أن كان فى عهده الغابر خير المستشفيات نظاما وأتمها أقساما ، وقد وصفه كثير من الرحالة الأجانب الذين وفدوا إلى مصر . ويعرف اليوم بمستشفى قلاوون للرمد .

وفى القرن الخامس عشر شيد المارستان المؤيدى (١٤١٨ — ١٤٢٠) ، وتقع بقاياه اليوم فى درب اللبان بالمنشية أمام القلعة حيث كانت مدرسة الأشرف شعبان التى هدمها الناصر فرج بن برقوق . أنشأه الملك المؤيد شيخ فى عام ١٤١٨ — ٢٠ ، وقد نزل فيه المرضى مدة من الزمان ثم تعطل ، وصار دار ضيافة ثم تحول إلى مسجد .

الطب فى العصر المملوكى المتأخر

الطبيب داود وتذكرته :

جدير بالذكر أن نسجل اسم أبو محمد داود بن عمر الأنطاكى المعروف بالبصير وهو من أصل سورى ، ولد بانطاكية سنة ٩٥٠ هـ — وحفظ القرآن ولما يبلغ

(١) محمود أحمد : مارستان السلطان قلاوون ، مجلة الهندسة ، عدد ٢ ، فبراير ١٩٣٤ ص ٣٨ — ٤٨ .

السابعة من عمره . ولما توفى والده انتقل إلى مصر ومر فى أثناء سفره إليها بدمشق وغيرها من مدن سورية ، واجتمع بعلمائها وأخذ عنهم . ثم أقام فى القاهرة وأخذ فى التأليف . فكانت أشهر مؤلفاته ، تذكرته الشهيرة . وله أيضاً كتاب البهجة والدرة المنتخبة فى ما صح من الأدوية المجربة ، وكتاب « غاية المرام ونزهة الأذهان فى إصلاح الأبدان » أو شرح قصيدة ابن سينا الذى يتكلم فيها عن النفيس ، وله أيضاً رسالة فى الهيئة (الكوسموغرافية) . وكفاية المحتاج فى علم العلاج ، وكثير غير ذلك من الشروح والرسائل . كان طبيباً ضريراً ، وإنما سمى بالبصير لما كان عنده من حدة الذهن وحسن البصيرة ويحكى عن فطنته وقوة ذاكرته أمور كثيرة . فمن ذلك أن رجلا أتاه ذات يوم وسأله : « مايقوم مقام اللحم ؟ » ، فقال : « البيض » . ثم غاب عنه سنة وجاءه وهو منهمك فى تركيب بعض الأدوية ، فقال له على غرة ، وبأى شىء يقلى ، فأجابه « بالسمن » وتوفى أبو محمد فى مكة أثر إسهال حاد ، وقيل مسموماً ، وكان ذلك فى عام ١٠٠٨ هـ — ١٥٩٩ وقد طبعت رسالته[١] لأول مرة فى مصر سنة ١٨٣٨ . وقد وصف بالتذكرة أكثر من ٣٠٠٠ دواء وعقار مما يستخدم فى الشفاء من الأمراض أو تجنب الإصابة بها .

مدين عبد الرحمن القوصونى المصرى :

رئيس الأطباء بمصر . تعلم الطب عن الشيخ داود . ولى مشيخة الطب بمصر بعد السرى أحمد الشهير بابن الصايغ . عاش حوالى ١٠٤٤ هـ (١٦٤٤) . له « كتاب قاموس الأطباء فى المفردات » [٢] كان أديبا ومؤرخا وله : « ريحانة الألباب والرياض الشهاب فى مراتب الآداب » ، كما ألف فى التاريخ . وقد ذكره الخفاجى فى كتابه « الخفايا » .

شهاب الدين أحمد بن أحمد بن سلامة القليوبى :

عالم بالأزهر وعرف بتقشفه وتضلعه فى العلوم العقلية . ألم بعلم الحساب والميقات والرمل ، ومهر فى الطب وبفنونه . توفى عام ١٠٦٩ هـ (١٦٥٨) .

---

(١) حسن عبد السلام : ذخيرة العطار أو تذكرة داود فى ضوء العلم الحديث دار المعارف القاهرة .

(٢) خلاصة الأثر جـ ٤ ص ٣٣٣

له مؤلفات فى العلوم الشرعية ، وأخرى فى الطب يعرف أهمها باسم « تذكرة القليوبى (١) ، ومنها المصابيح السنية فى طب البرية . وقد بحث القليوبى فى التذكرة أصول الأمراض وما ينشأ عنها وما ينفع لها ، ومعرفة النبض والبول لأجل التشخيص ، والأخلاط الأربعة واعتدالها أو فسادها بالمرض والأدوية المستعملة فى ذلك . ثم يذكر الطاعون وكيفية مدافعته والجدرى الأفرنجى المعروف بمصر بالمبارك . وينتهى البحث فى ٤٨ ورقة يتبعها ثلاث ورقات تحوى وصفات وفوائد طبية ويقع المخطوط كله فى ٥١ ورقة .

أحمد بن عبد المنعم الدمنهورى :

طبيب ولد فى دمنهور عام ١١٠١ هـ (١٦٨٩) ودرس الفقه والعلوم الحكمية وعلم الأصول والطب وارتقى منصبه بالقاهرة إلى أن أصبح شيخ الجامع الأزهر . وتوفى ببولاق فى ١٠ رمضان (أو رجب) سنة ١١٩٢ هـ (١٧٧٨) . ومن مؤلفاته : « القول الأقرب فى علاج لسع العقرب » . جاء فى مقدمتها : « حمداً لمن تفضل علينا بالإيجاد . . وبعد فهذه كلمات قليلة مشتملة على فوائد جليلة ويحتوى مقدمة فى وصف وكنية التقرب ، ومقصود فى دفع السم يذكر فيه وصفات منها ما يحتوى الدارصينى الذى ينفع من لسع العقرب(٢) ، والنعناع والثوم المطبوخ بالسمن النافعة فى لسع الزنبور والنحل والحية » . وخاتمة فيما ينفع السموم من الطب الروحانى وتضم شعوذات وقراءات تتلى على الملسوع وتمائم سحرية .

على بن جبريل :

شيخ دار الشفاء بالمارستان المنصورى (٣) . طبيب ماهر أتقن الطب وشارك فى غيره من الفنون كان أحد جلساء الأمير رضوان كتخدا الجلفى ووهب له بيتاً على بركة الأزبكية . توفى عام ١١٧٠ هـ (١٧٥٦) .

---

(١) مخطوط بدار الكتب المصرية ، ٣٨ طب حليم ، وآخر فى المكتبة الظاهرية بدمشق رقم عام ٩٧٤٩

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية ، ٣٠ طب حليم ، أنظر : د . سامى خلف . حمارنة : تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، القاهرة ١٩٦٧ ، جـ ٢ ، ص ٣١ و ٣٢ .

(٣) الجبرتى : عجائب الآثار ، جـ ١ ص ٢٠٦ .

دراسة المعادن والأحجار الكريمة

كانت دراسة مملكة المعادن موضع عناية العلماء العرب منذ أيام العباسيين والفاطميين . وذلك لحاجة الخلفاء والسلاطين إلى الأحجار الكريمة لتزيين الملابس والمتاع فى القصور وتقديمها هدايا للمقربين إليهم أو بيعها بأثمان مرتفعة فى الأسواق .

وقد وصلت إلينا أسماء بعض العلماء الكبار الذين اشتهروا بدراسة الأحجار الكريمة ، نذكر منهم: بيلق القبجقى الذى عاش فى القاهرة (حوالى ١٢٤٢—١٢٨٢) وألف قبيل وفاته « كتاب كنز التجار فى معرفة الأحجار » وقد أهداه للسلطان المنصور سيف الدين قلاوون (حكم ١٢٧٩ — ١٢٩٠) ، ويرجح بعض العلماء أنه اقتبس أكثر مادته من كتاب العلامة التيفاشى الذى سنذكره والجدير بالذكر أن بيلق وصف فى كتابه البوصلة العائمة واستخدامها فى الملاحة[1] كما سنوضحه فيما بعد .

شهاب الدين أبو العباس أحمد التيفاشى :

من علماء الأحجار الكريمة الذى عرفتهم مصر فى القرن الثالث عشر . وقد توفى بالقاهرة سنة ٦٥١هـ/١٢٩٣ م . ألف كتابه « أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار » . وصف فيه خمسة وعشرين نوعا من الأحجار الكريمة وقد تناول كل نوع منها على حدة ذاكرا أنواعها وخصائصها وأثمانها . نشره عام ١٨١٨ الكونت الإيطالى أنطونيو رينرى بشيا فى إيطاليا ثم أعيد طبعه بالنص العربى وترجمته الإيطالية فى عام ١٩٠٦ ، وترجمه إلى الفرنسية الأستاذ كليمنت موليه بعد إضافة الشروح والزيادات ونشره فى المجلة الأسيوية . وقد ألف التيفاشى كتبا أخرى ذكرها العلامة جورج سارتون فى معجمه الكبير عن تاريخ العلم .

محمد بن إبراهيم المعروف بابن الاكفانى :

تكلمنا عنه كطبيب، زاول الطب فى مستشفى السلطان قلاوون، وهنا نتحدث عنه كعالم من أعلام الباحثين فى الأحجار الكريمة، وعنوان كتابه « نخب الذخائر

---

(١) Sarton, g. IBID. vol. II p. II 1072

فى أحوال الجواهر ، ، ألفه حول النصف الأول من القرن الرابع عشر(١). توفى فى القاهرة عام ٧٤٩ ﻫ / ١٣٤٨ م فى أعقاب انتشار الطاعون .

أتقن ابن الأكفانى بالإضافة إلى الطب — العلوم الرياضية والحكمية ، فهو فيلسوف ، صنف فى الفلسفة وهو طبيب ، كما كان عارفا بالتاريخ وعلاوة على ذلك كان أديبا حافظاً الأشعار ، قال بن سيد الناس عنه :

« ما رأيت من يعبر عما فى ضميره بأوجز من عبارته ، ولم أر أمتع منه ، ولا أفكه من محاضرته ، ومن أهم تآليفه :

١ — اللباب فى الحساب .
٢ — غنية اللبيب فى غيبة الطبيب . يشتمل على أربعة أركان : الأول — فى حفظ الصحة . والثانى فى تدبير المرض ، والثالث فى وصايا نافعة ، والرابعة فى خواص مبعثرة .
٣ — كشف العين فى أمراض العين .
٤ — نهاية القصد فى صناعة الفصد .
٥ — النظر والتحقيق فى تقليب الرقيق .... وغيرها .

علم الحيوان

كمال الدين محمد بن موسى الدميرى :

نلتقى بالدميرى المولود فى القاهرة حوالى سنة ٧٤٢ ﻫ / ١٣٤٤ م . توفاه الله سنة ١٤٠٥ وهو مؤلف الموسوعة الكبرى فى علم الحيوان. كان أستاذ علم الحديث فى المدرسة الركنية بالقاهرة ثم عمل أستاذاً بالأزهر . حج عدة مرات وشهر بالتفسير والحديث والفقه والأدب ، كما اشتهر بالزهد . وله مؤلفات جليلة فى تلك الحقول التى ذكرناها . وأشهر كتبه : « كتاب الحيوان الكبرى » الذى يقع فى قرابة أربعمائة صفحة وقد طبع فى القاهرة سنة ١٣٥٣ﻫ / ١٩٣٤ ، وعلى هامشه كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للإمام العلامة زكريا بن محمد

(١) نشر الأب أنستاس الكرملى هذا الكتاب عام ١٩٣٩ فى القاهرة . انظر أيضاً : عبد الرحمن زكى: الأحجار الكريمة فى الفن والتاريخ . المكتبة الثقافية رقم ١٠٨ ، القاهرة

القزوينى . عالج الدميرى موضوع حياة الحيوان بالطريقة التى جرى عليها غالبية العلماء العرب من حيث ترتيب أسمائها حسب حروف الهجاء ، مبتدئاً بحرف الهمزة . وقد جمع بين الطائر والسمك والحشرات والزواحف وهكذا ، كما جمعت الطريقة بين مادة العلم الطبيعى من وصف للحيوان وسلوكه وموطنه وبين ماروى فيه من شعر وأدب ونوادر مما يجعل قراءته ميسرة محببة إلى جانب ما فيها من نفع علمى .

عنى المستشرقون عناية فائقة بكتاب الدميرى ، فترجموا مقتطفات شق منه إلى لغاتهم فى عصور النهضة الأوروبية ، ولاسيما القسم الذى كان العلامة السيوطى قد نظمه ، فترجمه إلى اللاتينية اكسملنسيس فى عام ١٦٦٧ . كما انتفع العلامة بوخارتوس سنة ١٦٦٣ بكتاب الدميرى حينما ألف كتابه هيروزيكون . وهناك ترجمة كاملة بالإنجليزية اضطلع بها المقدم جاياكار الهندى أصدرها فى بومباى (١٩٠٦ — ١٩٠٨) .

الفلك والرياضيات

وفى العصر المملوكى، نبغت طائفة من علماء الفلك ، نذكر منهم: أبو زكريا يحيى المشهور بابن اللبودى (توفى بعد عام ١٢٦٧ م) ، وكان رياضياً وحسابا .

ناصر الدين محمد بن سمعون المؤقت (ت ١٣٣٦/٣٧م) :

فلكى مصرى (سورى الأصل) ومؤقت . صنف رسالة فى عدة مسائل فلكية ، عنوانها : « التحفة الملكية فى الأسئلة والأجوبة الفلكية » ، وألف أخرى فى استعمال الأسطرلاب عنوانها « كنز الطلاب » ، اقتبس أكثرها من رسالة لأبى الصلت أمية ، وقد ذكر كارل بروكلمان الرسالتين فى مجلده الثانى (ص١٢٦) .

أبو عبد الله محمد بن أحمد المزى الحنفى (ت ١٣٤٩) :

ولد عام ١٢٩١ وتعلم بالقاهرة ، وعاش فى دمشق حيث اشتغل مؤذنا فى المسجد الأموى. صنع عدة أسطرلابات وآلات الربع وله واحدة منها فى مكتبة لينينجراد ، صنعه فى دمشق عام ١٣٣٣/١٣٣٤ ، نقش عليه إسم صاحبه ناصر الدين محمد بن عبدالله ابن عبد الرحيم . ألف عدة رسائل فى كيفية صنع أجهزة معرفة الوقت وكيفية استخدامها ، نجدها فى مكتبات كثيرة مما يدل أنها كانت مراجع يستفاد بها .

ذكر بروكلمان تلك الرسائل مرتبة كالآتى فى الجزء الثانى من كتابه (ص١٢٦):

١ — الرسالة الأسطرلابية .
٢ — كشف الريب فى العمل بالجيب .
٣ — الروضات المزهرات فى العمل بربع المقنطرات .
٤ — الرسالة فى العمل بالمنحة (نوع من الأسطرلاب) .
٥ — نظم اللؤلؤ فى المهذب فى العمل بالربع المجيب (أراجيز ومقدمة) .
٦ — رسالة فى العمل بالربع المسطر .
٧ — مختصر فى العمل بالربع الدائرة .

وقد ذكر العلامة الرياضى سوتر رسالتين أخرتين لأبى عبد الله محمد ، إحداهما عن المقنطرات المطوية ، وثانيتهما عبارة عن جداول الحصص ، ولم ينشر بعد شىء من هذه الرسائل .

ومن علماء الفلك أيضاً فى هذا العصر :

شهاب الدين بن محمد الحنفى البهانقى بن المعيقى الذى ولد فى عام ١٣٥٥ ، وقد ألف رسالة فى استخدام آلة الربع ، عنوانها « رسالة فى العمل بالربع المغنى » . ذكره بروكلمان فى ملحق كتابه الثانى (ص ١٥٨) .

شهاب الدين أبو العباس أحمد (ابن المجدى) :

ولد بالقاهرة فى ١٣٥٨/٥٩ وعمل بمصر وتوفى فى ٢٧ يناير ١٤٤٧ . ألف عدة رسائل فى استخدام آلات الربع وفى الملاحظات الفلكية وعدة جداول فلكية . وقد ذكر بروكلمان منها ٢٦ كتابا ورسالة، ومن المرجح أنه كرر بعضها . وفيما يلى مؤلفاته فى استخدام آلات الربع :

١ — خلاصة الأقوال فى معرفة الوقت ورؤية الهلال .
٢ — المنهل العذب الزلال فى تقيم الكواكب ورؤية الهلال .
٣ — ارشاد الحائر إلى تخطيط فضل الدائر .
٤ — زاد المسافر فى معرفة رسم خطوط فضل الدائر .
٥ — رسالة فى العمل بربع المقنطرات المقطوع .
٦ — ارشاد السائل إلى أصول (أحوال؟) المسائل . وهى عبارة عن تعليقات على رسالة عبد الله بن خليل الماردينى، وعنوانها « الدر المنثور فى العمل بربع الدستور » .

٧ — الروض الأزهر (شرح العمل بالمشطح) .

٨ — تحفة الأحباب فى نصب الباذهنج والمحراب .

وفى الجداول والتقاويم ، له :

٩ — الجامع المفيد فى الكشف عن أصول مسائل التقويم والمواليد .

١٠ — الدر اليتيم فى تسهيل صناعة التقويم .

١١ — التسهيل والتقريب فى بيان طرق الحل والتركيب .

١٢ — غنية الفهيم والطريق إلى حل التقويم .

١٣ — الكواكب المضيئة فى العمل بالمسائل الدورية .

١٤ — مجموع محلولات فى علم النجوم .

١٥ — جداول السموت .

وألف أبو العباس عن الشمس والقمر الرسائل الآتية :

١٦ — دستور النيرين .

١٧ — عقد الدرر فى العمل بالقمر .

١٨ — تقدير القمر (جداول عن القمر) .

وألف فى علم الحساب :

١٩ — كشف الحقائق فى حساب الدرج والدقائق .

٢٠ — المفتكرات الحسابية ، وهذا المخطوط فى مكتبة الاسكوريال .

وله فى علم المواريث :

٢١ — إبراز لطائف الغوان وإحراز صناعة الفرائض .

٢٢ — شرح نظم اللآلىء فى الفرائض (لمصالح بن ثامر الجعبرى) وهى رسالة فى الميراث على المذهب الشافعى .

ولم ينشر بعد شىء من هذه الرسائل .

ونذكر من علماء الرياضة فى العصر المملوكى ، تقى الدين الحنبلى بن عز الدين وقد عاش حوالى عام ١٤٠٩ . كتب رسالتين فى الحساب ، إحداهما عنوانها « حاوى اللباب فى علم الحساب » . ومخطوطتها فى دار الكتب الوطنية فى باريس

(رقم ٢٤٦٩) وهى مؤرخة فى ١٤٠٩ — ١٠ وأهم ما تشتمل عليه هذه الرسالة تلك البراهين الحسابية المعروفة بالميزان أو الامتحان . ذكره العلامة كارادى فو فى كتابه الثانى (ص١٥٦) .

وهنالك معاصره عالم الحساب المصرى ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد ابن الهائم الفرضى الذى ولد فى القاهرة حوالى (١٣٥٢) أو ١٣٥٥) . وقد اشتغل مدة طويلة مدرساً فى المدرسة الصلاحية التى أسسها صلاح الدين بالقدس . وقد توفى فى عام ١٤١٢ . ألف عدة كتب فى علم الحساب ومسائل الميراث والجبر . وقد ذكر العلامة سوتر منها عشرة ، أما بروكلمان فقد ذكر له ١٨ رسالة وكتاباً . وأكثرها تعتبر من الكتب المدرسية ولذلك كان يعاد كتابتها بزيادات ملحوظة . وفيما يلى ثبت بها :

١ — مرشد الطالب إلى أسنى المطالب فى الحساب .
٢ — كتاب اللمع فى علم الحساب .
٣ — المقنع : قصيدة قصيرة فى الجبر . علق عليها وشرحها الفلكى والأسطرلابى سبط الماردين (١٤٢٣—١٥٠٦) .
٤ — ترغيب الرائد فى علم الفرائض .
٥ — المعونة فى علم الهوائى وله ملخص بعنوان « الوسيلة » .
٦ — غاية السؤل فى الإقرار بالمجهول .
٧ — شرح الأرجوزة الياسمينية ، وهى شرح لأرجوزة فى الجبر للعلامة المراكشى ابن الياسمينى .

وهنالك شاعر مصرى له اسم علامتنا الرياضى ، ولد بالمنصورة عام ١٣٩٦ وعاش فى القاهرة ثم توفى فى سنة ١٤٨٢ .

تاج الدين على بن محمد بن عبد العزيز الثمالى الموصلى :

عراق الأصل ولد بالموصل (١٣١٢) ثم عمل مدة فى مصر واشتهر فيها . تلقى العلم فى وطنه وكان أبوه ثرياً لكنه لم يفد نتلك الثروة التى ضيعها الوصى عليه ، فسافر إلى دمشق والقاهرة ، ثم عاد إلى حلب (١٣٤٨) واختير أستاذاً فى المسجد الأموى . وفى عام ١٣٥٩ اجتذبته القاهرة فدرس بها وسرعان ما اتصل

به السلطان الناصر حسن بن قلاوون ، فوقع عليه اختياره فى مهمة سياسية إلى الحبشـــة ، بيد أنه توفى فى أثناء رحلته إليها ، وكان ذلك فى مدينة قوص فى ديسمبر ١٣٦٠ . ومن مؤلفات تاج الدين :

١ — غاية المغنم فى الإسم الأعظم .

٢ — رسالة فى خواص الحيوان (كتاب منافع الحيوان) ومخطوطها فى الأوسكوريال (رقم ٨٩٨) وتاريخها ٢٨ مارس ١٣٥٤ ، كتبت بخط جميل واشتملت على ٢٥٠ منمنمة رائعة ومذهبة تمثل شتى الحيوان بمنتهى الدقة . وقد فقدت الأوراق الأولى من هذه المخطوطة ، يشاهد فيها رسوم آدمية ورسوم للحيوانات المستأنسة والوحوش والطيور والسمك والزواحف والديدان والحشرات ... الخ . ذكر بروكلمان هذه المخطوطة (الجزء الأول ، ص ٢٣٣ ، ٢٣٦ ، ٤٨٣) ، وتكلم عنها العلامة لكليرك الفرنسى (ج ٢ ص ٢٧٧) .

ابراهيم الحاسب المنصورى الناصرى :

منجم مصرى عاش حوالى ١٣٥٨ م وكتب فى القاهرة بحوثاً شتى اشتملت على شروح لكتاب الألوف والأدوار ، وكتاب القرانات وكتاب الأمثال لأبى معشر . ذكره بروكلمان فى الملحق الثانى ، ص ١٥٧ ، عام ١٩٣٨ .

البوصلة المغناطيسية

من الشائع أن الصينيين نقلوا استعمال الإبرة المغناطيسية ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة إلى قدماء العرب الذين نقلوها بدورهم إلى الغرب . والمعروف جيداً أنه كان للعرب فى أيام فاسكو دى غاما [أواخر القرن الخامس عشر] إلمام واسع فى الملاحة . وأنهم لم يكونوا دون البرتغاليين فى الشئون البحرية . وذكر لودوفيكو دى فاريتما « أن العرب الذين خاضوا البحر الأحمر فى ذلك التاريخ نفسه قد استعملوا الخريطة والبوصلة » .

ومهما يكن من أمر فإن لدينا نصين عربيين يرقيان الأول إلى أواخر القرن الثالث عشر ، والثانى إلى أواسط القرن الخامس عشر يذكران الإبرة المغناطيسية وطرق استعمالها فى الملاحة على غاية من الدقة ، وإن لم يسميا الآلة باسم البوصلة

الذى لم يكن معروفا عند العرب حينذاك . أولهما لبيلك القبجاقى فى كتابه « كنز التجار » ، وقد تكلمنا عنه، وهو مخطوط فى مكتبة باريس بيد المؤلف مؤرخ بالسنة ٦٨١ هـ (١٢٨٣) يقول فيه :

« وفى خواص المغناطيس أن رؤساء بحر الشام ، إذا أظلم عليهم الجو ليلا ، ولم يروا من النجوم ما يهتدون به على تحديد الجهات الأربع ، يأخذون إناء مملوءا ماءا ، ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلوه إلى بطن السفينة ، ثم يأخذون إبرة ، وينفذونها فى سمرة أو قش حتى تبقى معارضة فيها كالصليب ، ويلقونها فى الماء الذى بالإناء ، ومعدود لها ، فتطفو على وجهها ، ثم يأخذون حجرا من المغناطيس كبيرا ملء الكف أوصغير ويدفنونها من وجه الماء ، ويحركون أيديهم دورة اليمين . فعندها تدور الإبرة على صفحة الماء ، ثم يرفعوا أيديهم على غفلة وسرعة ، فإن الإبرة تستقبل بجهتها جهة الجنوب والشمال . . . رأيت هذا الفعل منهم عيانا فى ركوبنا البحر من طرابلس الشام إلى الأسكندرية سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) ، وقيل أن رؤساء مسافرى بحر الهند يتعوضون عن الإبرة والسمرة بشكل سمكة من رقيق بجوف مستعد عندهم ، يمكن أنه إذا ألقى فى ماء الإناء عام، وسامت برأسه وذنبه الجهتين من الجنوب والشمال .

وثانيهما نص نقله المقريزى (ت ١٤٤٢) فى خططه ، قال :

« ما برح المسافرون فى بحر الهند ، إذا أظلم الليل ولم يروا ما يهديهم من الكواكب إلى معرفة الجهات ، يحملون حديدة مجوفة على شكل سمكة ، ويبالغون فى ترقيقها جهد المقدرة ، ثم يعمل فى فم السمكة شىء من المغنطيس جيدا، ويحك فيها بالمغنطيس فإن السمكة إذا أوضعت فى الماء ، دارت واستقبلت القطب الجنوبى بفمها ، واستدبرت القطب الشمالى ، وهذا أيضا من أسرار الخليقة . فإذا عرفوا جهتى الجنوب والشمال ، يتبين منهما المشرق والمغرب . . . فإذا تحددت الجهات الأربع ، عرفوا مواضع البلاد منها ، فيقصدون حينئذ جهة البلاد التى يريدونها.

وقد أشار الإدريسى (ت ١١٥٣) ، قبل القبجاقى بنحو مائتى سنة إلى جاذبية المغناطيس ، إلا أن شرحه اكتنفه شىء من الغموض . ولعل أقدم نص صريح فى ذكر هذه البوصلة البدائية فى القرون الوسطى ، يرجع إلى القرن الثانى عشر فى

رسالة كتبها اسكندر نيكام بعنوان « فى المواعين (De Ustensilibus) » ذكر فيها إبرة تستعمل فى السفن فتساعد البحارة على معرفة طريقها ، عندما تغيب نجمة القطب ،وهى توضع على محور ، وتترك حرة فى مركزها » .

أما أقدم بحث مفصل فى البوصلة الممغنطة، فلعله فى مؤلف بطرس بريغرينوس ده مريكورت الذى كتبه عام ١٢٦٩ ، ودعاه « رسالة فى المغناطيس » .

الكيمياء

عز الدين الجلدكى الكيميائى :

حظيت مصر بالكيميائى (عز الدين على بن أيدمر الجلدكى الذى عاش فى دمشق والقاهرة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون وتوفى بالقاهرة عام ٧٦٢هـ — ١٣٦١ ويعتبر آخر الكيميائيين العرب ذوى الشهرة وقد ترك قرابة عشرين مصنفا فى علوم الحكمة والكيمياء من أهمها : البرهان فى علم الميزان (مخطوط دار الكتب بالقاهرة رقم ٣٥ كيميا) . والكتاب مرتب على أربعة عشر بابا ولم يحقق أو ينشر بعد ، وقد قدم لنا الجلدكى فى مؤلفه المذكور سرداً لأسماء وأبحاث الكيميائيين العرب الذين سبقوه ، كما أمدنا ببعض تجارب ونظريات استغلها كيميائيو عصر النهضة الأوروبية .

والجلدكى أول من قال إن المواد لا تتفاعل إلا بأوزان معينة ، وهذا هو قانون النسب الثابتة فى الاتحاد الكيميائى الذى توصل إليه العالم الفرنسى يوسف براوست عام ١٧٩٩ . والجلدكى أول من أدرك إمكان فصل الفضة عن الذهب بتأثير حامض النتريك الذى يذيب الفضة ويترك الذهب . وله كتابان آخران فى الكيمياء ، يسمى الأول (نهاية الطلب) والثانى (التقريب فى أسرار التركيب) ، ويبلغ كل منهما نحو ألف صفحة ، وهما يشبهان موسوعة علمية اشتملت على الكيمياء الإسلامية بمبادئها ونظرياتها وبحوث علمائها ونتائج تجاربهم مع وصف العمليات المستخدمة فيها كالتقطير والتصعيد والتكليس وغير ذلك[١] .

---

(١) محمد محمد فياض : جابر بن حيان وخلفاؤه . سلسلة إقرأ رقم ٩١ ، ص٩٦ — ٩٧ .

اكتشاف البارود :

لم يصل العلماء بعد إلى تحديد تاريخ اختراع البارود، وليس هناك من الأدلة التي تؤكد أن الصينيين عرفوا استخدامه كمفجر في العصور القديمة . ويدعي كثير من الأمم القديمة بأنهم قد اخترعوه ، كالصينيين ، والهنود ، والإغريق، والعرب والألمان والبريطانيين. فالأقوال إذن متضاربة عن إسم أول من فكر في دفع كرة (قنبلة) في داخل أنبوبة معدنية باستخدام البارود كمادة مفجرة . وعلى أية حال، فهو ليس الراهب بارتولد شفارتز ، وذلك بعد أن أثبت العلماء أنه لم يكن سوى شخصية خيالية ! إذن فهل العلامة الإنجليزي روجر باكون (ح ١٢١٤ — ١٢٩٢) هو الذي اخترع البارود؟ صحيح أنه توصل إلى معرفة قاعدة البارود ، فقددونها بطريقة الكتابة السرية وبقيت مجهولة مدة طويلة حتى تمكن فك سرها واحد من العلماء بعد أن رتب حروفها اللاتينية وقرأها : (خذ سبعة أجزاء من ملح البارود، وخمسة من فحم الوقود الصغير ، وخمسة من الكبريت) . وهناك آخران ينسب إليهما بعض العلماء اكتشاف البارود ، ولكن أحداً لم يثبت بعد استخدامه كمادة متفجرة دافعة . وفي منتصف القرن التاسع عشر، أثبت بحوث العالمين رينو وفافيه وغيرهما أن العرب هم الذين اخترعوا بارود المدفع السهل الانفجار الدافع القذائف . وكان من رأى هذين العالمين من قبل أن اختراع البارود يعود إلى الصينيين ، بيد أنهما بعد إطلاعهما على مخطوط نجم الدين حسن الرماح المصري الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، وعنوان هذا المخطوط : (كتاب الفروسية والمناصب الحربية) وتوجد مخطوطته بنسختيها في دار الكتب الوطنية في باريس ، أثبت أن اكتشاف البارود واستخدامه يعود قطعا إلى حسن الرماح . والمعروف أن عالم النبات ضياء الدين بن البيطار (ت ١٢٤٨) مؤلف كتاب (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، كان أول عربي ذكر في كتابه كلمة (بارود) . قال ابن البيطار : أسيوس وهو ثلج الصين عند القدماء من أطباء مصر ، ويعرفه عامة المغرب وأطباؤها بالبارود) ، وقد ذكر ابن البيطار كلمة البارود مرة أخرى في كتابه المذكور .

وسنذكر النص الكيميائي لتكوين البارود كما جاء في مخطوط حسن الرماح(١) .

---

(١) جوستاف لوبون : حضارة العرب ، الطبعة الرابعة ، ص ٤٨١ .

وصف الذخيرة التى تدك فى المدفع وبيان نسبتها : تؤخذ عشرة دراهم من البارود ، ودرهمان من الفحم ، ودرهم ونصف درهم من الكبريت ، وتسحق جيدا حتى تصبح كالغبار ، ويملأ منها ثلث المدفع فقط خوفاً من انفزاره . ويصنع الخراط من أجل ذلك مدفعاً من خشب تناسب جسامته فوهته ، وتدك الذخيرة فيه بشدة ، ويضاف إليها إما بندق وإما نبل ، ثم تشعل ، ويكون قياس المدفع مناسبا لثقبه ، فإذا كان عميقا أكثر من اتساع الفوهة كان ناقصا » .

والمعروف أن حسن الرماح توفى حوالى ٦٩٤هـ—١٢٩٥ م وهو فى شبابه ، ونشر العلامتان رينو وفافيه مقتبسات طويلة من كتاب حسن الرماح(١) .

فن الحرب

وفى الميادين الهامة التى أسهمت مصر فيها ، تأليف كتب الحرب والرسائل المتصلة بعتاد الجيوش ، ومواد النفط والبارود ، والإدارة والتنظيم والفروسية . وكان نصيبها من ذلك فخما ، ولا سيما على أيام الأيوبيين ودولتى المماليك . فقد جاهد سلاطين هذه الأسرات المجيدة فى إعلاء كلمة الإسلام وصـــد جيوش الافرنج والمغول مئات السنين . فكان مما ألفه مرضى بن على بن مرضى الطرسوسى بناء على أمر صلاح الدين الأيوبى ، كتاب «تبصرة أرباب الألباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الأسواء ونشر أعلام الأعلام فى العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء » .

وفى طليعة مؤلفى الكتب الحربية يقابلنا الأمير لاجين بن عبد الله الذهبى الطرابلسى الحسامى (٧٣٨ هـ — ١٣٣٧) مؤلف الكتب الآتية :

---

(١) Extracts from the " Kitab al — Furusiyah " in Arabic and French are given by Joseph T. Reinaud and I. Favé ; Histoire de l'artillerie 1er partie. Du Feu grégois, des feux de guerre et de originer de le poudres a canon. Paris 1845. أنظر أيضا :

J. R. Partington : A History of Greek fire and Gun — powder pp. 200— 201. Cambridge.

● «تحفة المجاهدين فى العمل بالميادين» ، ومنه نسخة فى أياصوفيا(٢٩٠٠ و ٢١٩٦) وطوبقابوسراى ٢١٢٩ ،وباريس ٦٦٠٤ ،والمكتبة التيمورية ،ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

● ولابنه محمد بن لاجين الحسامى الرماح الذى عاش حوالى عام ١٣٧٩ الكتب الآتية . بغية القاصدين بالعمل فى الميادين ، ومنه نسخة فى أيا صوفيا ، وفى ليدن ١٤١٨ ، وقدتناول فيه تكتيكات الفرسان .

○ وكتاب « بنود الرمح من بنود الأحداث والفروسية برسم الجهاد » . ومنه نسخة فى ليدن رقمها ١٤١٩ .

○ وكتاب «غاية المقصود فى العلم والعمل بالبنود » ، منه نسخة فى دار الكتب الوطنية بباريس رقمها١٨٢٧.

● ولعماد الدين موسى بن محمد بن يحيى (٧٥٩ هـ — ١٣٥٨ م) الكتب الآتية :

« كشف الكروب فى معرفة الحروب » منه نسخة فى دار الكتب المصرية (٢١٠ فنون حربية) ، ونسخة فوتوغرافية بمكتبة المتحف الحربى (رقم ١٠٦) وكتاب « مختصر فى سياسة الحروب » وله نسخة مصورة فى معهد المخطوطات العربية (ف ٨٤٤) .

● ومن مؤلفى كتب الحرب ، نذكر محمد بن منكلى الناصرى رئيس حرس السلطان الأشرف شعبان المملوكى (حكم ١٣٦٣ — ١٣٧٦) ، ومن كتبه :

« الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية » ، يبحث فى القتال فىالبحر ويحتوى على ١٢٢ بابا اشتملت علىذكر ووصف السفن الحربية وحركاتهاوالرمى بالمدافع ، منه مخطوط فى المتحف البريطانى رقم ٨٢٢ ، ودار الكتب المصرية (٧٠٥ فنون حربية) والخزانة التيمورية ٢٣ فروسية. وكتاب « الأدلة الرسمية فى التعابى الحربية) ، ومنه مخطوط فى أيا صوفيا ٢٨٣٩ وهى بخط المؤلف عام ٧٧٠ هـ ، وأخرى برقم ٢٨٧٥ مكرر وكتاب « أنس الملا بوحش الفلا » ، يبحث فى صيد الحيوان والفروسية ومنه مخطوط فى دار الكتب الوطنية بباريس ٣٨٣٢ ومكتبة بلدية الاسكندرية (٧٦ فنون حربية) ، ودار الكتب المصرية (٦ — ١٤٠)

وقد ذكر سارتون أن فلوريسان فرعون نشره مع ترجمة فرنسية فى باريس عام ١٨٨٠ . وله كتاب « الحيل فى الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب » منه مخطوط فى أيا صوفيا (٣٠٨٦ و ٣٠٨٧) ، وطوب قابوسراى (٣٤٦٩) ، وليدن رقمها ٤٩٩ ،وله: « الرسالة المرضية فى صناعة الجندية » وقد ذكرت فى مرجع كشف الظنون.

ولابن الطرابلسى ناصر الدين ، كتاب « المخزون لأرباب الفنون» وهو يبحث فى الفروسية ولعب الرمح وبنودها ومنه مخطوط فى المكتبة الوطنية بباريس ٢٨٢٥ - ٢٨٢٦ ، وتاريخ المخطوط الأخير عام ٩٨٦ هـ/ ١٥٧٨ .

والمؤلف نجم الدين حسن الرماح الأحدب(حوالى ٦٩٤ هـ — ١٢٩٥م) وأهم كتبه «الفروسية والمناصب الحربية» منه مخطوط فى المكتبة الوطنية بباريس ٢٨٢٥ وجاء فيه وصف البارود واستخدامه. وكتاب «السؤل والأمنية فى تعليم الفروسية» وقد تكلمنا عنه فى أول هذا الكلام . وله أيضا : «عمل الرمح مع الأرض والفرس» ومخطوطه فى مكتبة الفاتيكان وله كتاب آخر .

ولأرنبغا الزردكاش :

« الأنيق فى المجانيق » الذى ألفه حوالى عام ٨٦٧ هـ — ١٤٦٢ وقد وصف فيه أنواع المجانيق وكيفية استخدامها موضحا كلامه بالرسوم ومنه مخطوط فى دار الكتب المصرية(٧٥فنون حربية)، وطوب قابوسراى رقم ٣٤٦٩ ، وفى معهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

ولبكتوت الرماح وهو الأمير بدر الدين عبدالله الأشرف الخازندارى نائب الاسكندرية عام ٧٧١ هـ — ١٣٧٠ الكتب الآتية :

« علم الفروسية » ، منه مخطوط فى دار الكتب المصرية، وأخرى بالمتحف البريطانى و « كامل الصناعة فى علم الفروسية والشجاعة »، ومنه مخطوط فى دار الكتب المصرية .

ولطيبغا الأشرفى البكلميشى اليونانى ٧٩٧ هـ — ١٣٩٤ الكتب الآتية :

«بغية الرامى» وهو يبحث فى الرمى بالقوس والنشاب والبندق ،ومنه مخطوط فى مكتبة أحمد الثالث باستانبول ، وأخرى فى سوهاج .

وله أيضا «الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية» ، له مخطوط فى دار الكتب المصرية (٣ فنون حربيـة مخطوط) ، ومكتبة بلدية الاسكندرية . وله «غنية الطلاب فى معرفة الرمى بالنشاب» ومنه مخطوط بالمتحف البريطانى رقم ٨٢١، ودار الكتب الوطنية بباريس رقم ٢٨٣٢ ودار الكتب المصرية ، وليدن ، وكيمبردج .

مكتبات المماليك

وفى أيام المماليك ، لم تخل المساجد أو المدارس من خزانات الكتب الدينية والمخطوطات العلمية التى أسهم فى تأليفها أعلام العلماء المسلمين فى شتى ألوان المعرفة. ففى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى (١٢٥ — ١٢٧) بعد فراغه من بناء مدرسته عام ٦٦٢ هـ — ١٢٦٤ جعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم . ونذكر أيضا مكتبة المدرسة المنصورية (نسبة إلى الملك المنصور قلاوون) التى ألحقها بضريحه . ومكتبة المدرسة الناصرية (نسبة إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون) التى أنشأها بمدرسته عام ٧٠٣ هـ — ١٣٠٣ . وغيرها من مكتبات المدارس المملوكية (١) التى أنشئت فى القاهرة والاسكندرية ورشيد وغيرها من مدن مصر .

وهناك مكتبة مدرسة الأمير جمال الدين محمود الأستادار التى أنشأها سنة ٧٩٧ هـ — ١٣٩٥ م خارج باب زويلة (تعرف بالمدرسة المحمودية) وعمل فيها فى خزانة كتب، قال عنها المقريزى «لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها» وظلت هذه المكتبة عامرة حتى أواخر العصر المملوكى. وقد أوقفها صاحبها الأمير واشترط أن لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة. وقد تولى أمور هذه المكتبة طائفة من العلماء ، كان الشيخ المؤرخ الحافظ بن حجر العسقلانى واحدا منهم واستمر يعمل فيها حتى وفاته .

(١) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية ص ٢٧ — ٢٨

وكان بالخانقاه البرقوقية التى بناها السلطان فرج بن برقوق بخارج باب النصر سنة ٨٠١ هـ — ٨١٣ هـ خزانة كتب كبيرة . واحتوت المدرسة المؤيدية التى بناها السلطان المؤيد شيخ المحمودى سنة ٨١٨ — ٨١٩ هـ على مكتبة كبيرة .

أما السلطان قايتباى فإليه تنسب عدة مكتبات : ففى مسجده الرائع بقرافة المماليك أودع خزانة كتب ، كذلك كان فى مدرسته بقلعة الكبش ، كما تنافس أمراؤه فى تشييد المدارس التى أودعوا بها الكتب ، ومن هؤلاء الأمير يشبك الدوادار . وقد كان بمدرسة السلطان قانصوه الغورى بخط الشرابشيين خزانة كتب حوت من صنوف المصاحف والكتب شيئا كثيرا ، ورتب لها أمينا ثقة يقوم على خدمتها[1] . واقتدى به بعض أمرائه فى تأسيس المكتبات ، ومن هؤلاء : قانى باى قرا الرماح ، والأمير خاير بك صاحب المسجد المعروف بالتبانة ، والأمير بيبرس عبد الله .

وكان كثير من السلاطين والأمراء والعلماء مغرماً باقتناء الكتب النفيسة بخطوط مؤلفيها ، وجمع المصاحف الكريمة التى كتبها مشاهير الخطاطين ، ومن هؤلاء المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، فقد أودع فى مدفنه بالصحراء كتبه القيمة وتصانيفه المختلفة .

كتابة التاريخ فى العصر المملوكى

تحفل المرحلة المملوكية بطائفة لامعة من مؤرخى مصر ، نذكر فى طليعتهم : القاضى محى الدين بن عبد الظاهر الذى ولد بالقاهرة سنة ٦٢٠ هـ /١٢٢٢ م وتوفى بها سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م . وهو مؤلف « الروضة البهية الزاهرة والسيرة الظاهرية » . والمؤرخ القاضى تاج الدين محمد بن المتوج (١٢٤١ — ١٣٣٠ م) ، صاحب « إيقاظ المتغفل واتعاظ المتأمل » ، والمؤرخ أبو البقاء بن الجيعان (ت ١٤٩٥) ، صاحب القول المستظرف فى سفر الملك الأشرف ، ومؤلف « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » . وهو عبارة عن ثبت للأقاليم والبلاد المصرية ، وذكر زماماتها وأنواع أراضيها من رزق وأحباس وغيرها وذلك

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية ص ٢٧ — ٢٨

حتى سنة ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ ، وقد نشرت دار الكتب المصرية هذا الكتاب عام ١٨٩٨ .

ابن دقماق :

ونذكر أيضاً المؤرخ صارم الدين إبراهيم بن أيدمر العلائى المعروف بابن دقماق (١٣٤٩ — ١٤٠٦ م) وهو مؤلف « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وقد وصلنا أيضاً كتاب « الجوهر الثمين فى سير المملوك والسلاطين » وجزء من كتاب آخر بعنوان « نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام » . والمؤرخ شهاب الدين الأوحدى (١٣٦٠ — ١٤٠٨) ، وابن أبى أصيبعة وابن الراهب القبطى ، وأبا شامة ، وجمال الدين بن واصل (١٢٠٨ — ١٢٩٨) الفقيه الفيلسوف والمؤرخ ، مؤلف مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، وله كتاب موجز فى المنطق .

تقى الدين المقريزى :

وإذا ذكرنا هؤلاء ، فيتعين أن نثبت أيضاً ألمع المؤرخين المصريين الذين خلدت مؤلفاتهم التى كتبوها فى القرن الخامس عشر ، وهى تعد مكتبة مجيدة فى التراث المصرى الإسلامى . ويعتبر أحمد بن على المقريزى ألمع جماعته . وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » يعتبر المرجع الفريد لدراسة مصر الإسلامية وآثارها ومدارسها ومساجدها . ومن أهم مؤلفاته :

عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط . اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا . السلوك لمعرفة دول الملوك . المقفى الكبير . العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة . النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبنى هاشم . إغاثة الأمة بكشف الغمة . وللمقريزى بضعة بحوث فى علم الحديث كما أن له رسائل شتى .

ولد المقريزى بالقاهرة سنة ٧٦٠ هـ / ١٣٦٤ بحارة برجوان بالجمالية وانكب على الدرس والتحصيل وأظهر نجابة ومقدرة ثم التحق بديوان الإنشاء بالقلعة حيث ظل يعمل موقعاً حتى عام ١٣٩٨ عندما اختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين فى عامين ، وفى

سنة ١٤٠٨ انتقل إلى دمشق للاضطلاع بمنصب كبير وليتولى التدريس أيضاً ثم رحل إلى بلدان كثيرة ، وتوفى بالقاهرة عام ١٤٤٢ .

أبو المحاسن ابن تغرى بردى :

ومن مؤرخى مصر المعاصرين المقريزى : أحمد بن حجر(١٣٧٢—١٤٤٩) الذى ألف : « فتح البارى فى شرح البخارى » ، والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة . وكذلك المؤرخ بدر الدين العينى المولود بالشام (١٣٦٠ — ١٤٥١)، وجاء إلى مصر حيث عمل محتسبا للقاهرة والوجة البحرى . وهو صاحب عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، والمؤرخ أحمد بن عبد الله شهاب الدين المعروف بابن عربشاه (١٣٨٩ — ١٤٥٠) الذى نزح من دمشق إلى القاهرة فى زمن الملك الظاهر جقمق ، وهو مؤلف (عجائب المقدور فى أخبار تيمور) . والمؤرخ خليل بن شاهين صاحب « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك»(ت ١٤٦٩) والمؤرخ الجليل أبو المحاسن بن تغرى بردى (١٤١١ — ١٤٧٠) الذى ولد بالقاهرة بدار الأمير منجك اليوسفى . تقلد مناصب هامة فى الدولة ونهض بمسئوليات جسيمة منها نيابة دمشق وأتابكية العساكر بمصر ، وهو مؤلف عدة كتب ، منها :النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، والمنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، والدليل الشافى على المنهل الصافى . وحوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ،ونزهة الرائى فى التاريخ ،وغيرها. وعاصر أبا المحاسن مؤرخان جليلان هما ابن الصيرفى (١٤١٦ — ١٤٩٤) وهو تلميذ ابن حجر العسقلانى ، ومؤلف نزهة النفوس والأبدان فى تاريخ الزمان ، وأبناء الحصر فى أبناء العصر ، وسيرة الأشرف قايتباى . وكذلك المؤرخ أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى (١٤٢٧ — ١٤٩٧) وقد ولد بحارة بهاء الدين لصق باب الفتوح ، وتتلمذ لابن حجر وحج مع أبيه وأمه عام ١٤٥٢ فأقام بمكة بضع سنين وجاور بها ثم تنقل بين مصر والشام والحجاز وتوفى بالمدينة . ومن مؤلفاته : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، وذيل تاريخ دول الإسلام ، والمنتقى من تاريخ مكة ، والإعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ ، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، والجواهر والدرر فى ترجمة

ابن حجر ، والقول المبنى فى ترجمة ابن عربى . والمؤرخ الإدفوى (ت ١٣٤٧) صاحب الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد ، والبدر السافر وتحفة المسافر فى تراجم مشاهير القرن السابع ، والمؤرخ ابن قطلوبغا (ت ١٤٧٤) .

ابن اياس :

كان المؤرخ محمد بن أحمد بن إياس كأبى المحاسن سليل أسرة مملوكية . ولد بالقاهرة سنة ١٤٤٨ وقد أنجب فى حياته الطويلة (٨٤ سنة) خمسة وعشرين ولدا من الذكور والإناث . عاش عيشة راضية واشتغل بالتأليف فى التاريخ ونظم الشعر والزجل والموشحات وقد توفى عام ١٥٢٤ بعد أن ترك لنا : « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » . وعقود الجمان فى وقائع الزمان ، « مدح الزهور فى وقائع الدهور »، نزهة الأمم فى العجائب والحكم ... وغيرها .

السيوطى وابن الطولونى :

ومن زملاء ابن اياس : المؤرخ جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطى (١٤٤٥ — ١٥٠٥) الذى كتب فى عدة فنون، من أهمها كتب التاريخ الآتية : « حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة » ، وتاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، « تاريخ السلطان الأشرف قايتباى » وتاريخ أسيوط ، « والشماريخ فى علم التاريخ » « ونظم العقبان فى أعيان الأعيان » .

والمؤرخ عبد الباسط بن خليل بن شاهين (ت ١٥١٤) وقد ولد بملطية حيث كان أبوه متوليا نيابتها من قبل السلطان جقمق ، وقد شغف بالسفر وبتحصيل العلوم ، ثم استقر بالقاهرة ، فنزل بالخانقاه الشيخونية وتصوف واعتبره السخاوى من تلاميذه ، ومن مؤلفاته كتاب « نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين» وكتاب « نيل الأمل » وهو تكملة لتاريخ الذهبى ، وكتاب « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » وكتاب « تاريخ الأنبياء » .

والمؤرخ حسن بن حسين الطولونى (١٤٣٢ — ١٥٧١) الذى اتجه إلى كتابة التاريخ والفقه والأدب والفروسية ، ونال حظوة لدى السلطان اينال وقايتباى

الذى ولاه نيابة القلعة فقام بتحصينها . ولابن الطولونى كتاب « النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية » . وللمؤرخ ابن زنبل الرمال (ت بعد سنة ١٥٥٢) كتاب تاريخ أخذ مصر من الشراكسة ، والدرة اليتيمة فى مصر القديمة ، وتحفة الملوك والرغائب لما فى البر والبحر من العجائب والغرائب .

عبد الرحمن الجبرتى :

وفى القرن الثامن عشر يقابلنا عبد الله الشرقاوى (ت ١٨١٢) شيخ الجامع الأزهر ، وقد سجلت مؤلفاته تاريخ مصر حتى شملت حملة نابليون فى مصر . ثم وحيد عصره المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى (١٧٥٤ — ١٨٢٥) صاحب «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» الذى يعتبر أعظم كتب التاريخ فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ثم الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك (١٨٢٣ — ١٨٩٣) الذى تولى عدة مناصب منها نظارة المعارف وجميعهم قاهريون .

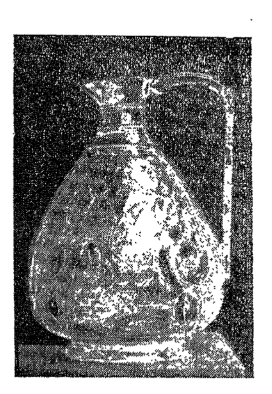
اللغة العربية والموسوعات

قدمت مصر أجل الخدمات للغة القرآن . ولدينا ثبت مجيد من أسماء أعلام الباحثين فى اللغة . يطالعنا العلامة عثمان بن عمر الفقيه المعروف بابن الحاجب المولود باسنا (حوالى ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م) والمتوفى بالاسكندرية (عام ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨) ، وكان مؤلفه (الكافى) فى قواعد اللغة العربية مرجع أجيال متعاقبة من الطلاب والمتعلمين فى المدارس الإسلامية ، بل وتناول العلماء كتابه بالشرح والإيضاح والتعليق عليه .

وكان العلامة عبد الله بن يوسف المشهور بابن هشام (١٣٠٨ — ١٣٦٠) بالرغم عن أنه كان فى زمن ، أستاذ دراسات القرآن فى القاهرة ، من علماء اللغة. واشتهر أيضاً العلامة المحقق محمد بن أبى بكر الاسكندرى بدر الدين الدماميني المولود بالاسكندرية (سنة ٧٦٣هـ —١٣٦٢ م) والمتوفى بالهند (سنة ٨٢٧ هـ/ ١٤٢٤ م) . ولمع من كتاب النثر : المرتضى الزبيدى (١٧٣٢ — ١٧٩١) صاحب قاموس تاج العروس . وهو يمنى الأصل ، طلب العلم فى مصر وعاش

فى القاهرة وتوفى فيها بعد أن قضى الشطر الأكبر من حياته فيها . له مؤلفات أخرى أهمها شرحه المطول لإحياء علوم الدين للغزالى ، وقد شاع استعماله فى الهند والسودان .

كانت مصر ومثلها سورية مهد الموسوعات والمعاجم الإسلامية، فإن معظم الذين ألفوا الكتب الجامعة للموضوعات المختلفة كانوا من أهل مصر أو كانوا من السوريين فى أيام اتحاد البلدين. فالنويرى (١٢٨٢—١٣٣٢) صاحب « نهاية الأرب فى فنون الأدب » كان من رجال السلطان الناصر محمد بن قلاوون . وابن فضل الله العمرى صاحب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » تولى القضاء بمصر فى عصر المماليك (١٣٠١ — ١٣٤٨) . وكتابه فى التراجم والتاريخ ملىء بالفوائد الجامعة والمفهومات الواسعة ، بالإضافة إلى أناقته فى التعبير ، وهو يقع فى أكثر من عشرين جزءا . ثم أبو العباس أحمد القلقشندى (ت١٤١٨) صاحب « صبح الأعشى » كان أيضاً من الموظفين المصريين . والعلامة جلال الدين السيوطى (١٤٤٥ — ١٥٠٥) صاحب الرسائل الناضجة فى التفسير والحديث وقد تكلمنا عنه .



إبريق من البلور الصخرى ، صناعة مصرية فى القرن العاشر ،
من لطائف متحف فكتوريا وألبرت فى لندن

المقالة الخامسة

الفنون والعمارة

بهذا تم الحديث عن جوانب هامة من تراث مصر فى الثقافة الإسلامية والطابع الإسلامى للتأليف والتحرير. وذكرنا أعمال مشاهير المؤلفين الذين ولدوا فى مصر أو جاءوا إليها من البلدان العربية ، ولكنهم أمضوا الشطر الأكبر من فترة إنتاجهم الفكرى فى مصر ، يستمتعون بالعطف والتعضيد والحماية التى يشملهم بها الولاة والسلاطين على مر السنين . ولا ريب أنه كان للقاهرة نصيب كبير من الفضل فى التراث الإسلامى الخالد .

وإذا كنا قد انتهينا من حديث التأليف والكتابة — فقد بقى علينا أن ننتقل إلى الإنتاج الفنى لمصر طوال العهد الإسلامى . والحديث عن الناحية الفنية قد يكون أقل استقراراً من الحديث عن التحرير والتأليف . على أننا سنتحدث عن فن العمارة وعن الصناعات اليدوية والفنون التطبيقية ، وعن تباين النواحى الفنية الأخرى .

كانت مصر فى ميدان الفنون الإسلامية مهد طرازين من أبدع الطرز الإسلامية هما الطراز الفاطمى والطراز المملوكى . ولكن ما هو موقف مصر قبل العهد الفاطمى ؟

لقد شاهد الفاتحون العرب فى مصر فنانين مهرة ، ولا سيما فى النسج والحفر فى الخشب وصناعة الزجاج ، وكانت للمعماريين المصريين شهرة واسعة فى فجر الإسلام ، فقد وجدت أوراق بردى على مقربة من سوهاج ثبت من نصوصها أن فريقا من مهرة البنائين المصريين استخدموا فى المسجد الجامع بدمشق ، وفى المسجد الأقصى فى بيت المقدس .

لقد أفاد الفنانون المصريون لأجيال متعاقبة من أعمال صناع البلدان المجاورة، واتخذوا منها نماذج قبل أن يكونوا طرازاً خاصاً ، كما حدث فيما بعد ، ولكن ينبغى فى هذا المقام ألا ننسى أن مصر كانت لفترة طويلة من تاريخها الإسلامى تشترك مع الشام فى ولاية إدارية واحدة. وكان نقل رجال الصناعة طليقاً بين نواحى العالم

الإسلامى وكان الصناع المشرفون على البناء من غير المسلمين يخدمون تابعين للولاة المسلمين حيث شاءوا أن يوجهوهم . وكان الصناع الأقباط — وبخاصة فى مصر — يدينون بالولاء للفاتحين المسلمين ويتعاونون معهم . وهؤلاء ، ولا ريب ، من مهرة الصناع ، ولا سيما فى صناعة النسيج والتطريز والزخرفة — الشيء الذى تدل عليه مخلفات العهد القبطى وتأثيرها فى تطور الفن الإسلامى .

وللحصول على معلومات تفصيلية عن طبيعة كل فرع من فروع الفن ينبغى الرجوع إلى ما كتبه الإخصائيون فى كل فرع . ويتعين أن نتذكر أن الفن ، كجملة واحدة مجموعة معاً ، إنما تضىء فى مجموعها معاً . ولهذا فقد يكون من التعسف أن نحاول فصل نواحى الفن عن بعضها البعض .

ويحتوى الخزف الفاطمى بوجه خاص على عدد طيب من مشاهير الخزافين وتوقيعاتهم . فمن أشهر خزافى العصر الفاطمى أبو القاسم مسلم بن الدهان (القرن ١١ م) وسعد (أواخر القرن ١١ م/١٢)، وغبن (١١ م) . ولقد أمكن لسبب وفرة قطع الخزف التى تحمل توقيع هذا الخزاف الماهر من دراسة أسلوبه الفنى والمقارنة بين زخارف العصر الطولونى وناظراً عليها فى العصر الفاطمى (١) . وبالإضافة إلى هؤلاء ، أمكن العثور على توقيعات طائفة أخرى من الخزافين الفاطميين المهرة ، نذكر منهم : على البيطار ، وهيثم بن إبراهيم ، ومترف أخو مسلم الدهان ، وأحمد الصياد والشريف أبو العشاق ، والعلوى ، وجعفر البصرى ، والطبيب ، وأبى الفرج ، ومنتجات جميع هؤلاء ، توجد نماذج منها فى متحف الفن الإسلامى وقد درسها المتخصصون .

وكان الطراز المعمارى فى التصميم والزخرفة فى مصر قد اتخذ نموذجاً له فيما شيد فى بغداد وسر من رأى . نجدهذا واضحاً فى تلك الدرة المعمارية — مسجد ابن طولون — وينبغى أن نذكر أنه قد حرم منذ تاريخ مبكر إبراز الصور البشرية فى الفن . ولكن لا مرية فى أن التحريم ، وإن وضح فى الآثار العامة ، لم يلاحظ إطلاقاً فى الدور الخاصة . فالشيعة فى فارس قد أغفلوا هذا . . وفى لفحة

---

(١) عبد الرءوف على يوسف : خزافون من العصر الفاطمى وأساليبهم الفنية . مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) ، مجلد ٢٠ ، عدد ٢ ، ص ١٧٣ — ٢٧٩ ، عام ١٩٦٢

هذه النفحة الإنسانية وصلتنا عدة نماذج للنحت ، إلا أن هذا الفن فى الواقع لا وجود له فى مصر الإسلامية إلا نادرا .

وفى غمرة هذا التجديد كان لزاماً أن يجد الفن له مخارج أخرى ، ولم تكن هذه المنافذ سوى تطورات فى التصميم الهندسى نفسه واستخدامه فى كل المواد على متفاوت أنواعها ، وقد وجد الفنانون متسعاً لإبراز فنهم فى صناعة تجليد المصاحف والكتب . وهى صناعة بدأت فى وقت مبكر فى مصر كما وجد فنانو هذه الصناعة أن للفن القبطى تأثيره القوى فى كل الطرز البدائية الأولى . ولكن لم يلبث هؤلاء أن كان لهم طابعهم الخاص . وكان لرسوم الإنسان والحيوان بدورها أثرها فى هذه الصناعة ببلاد فارس . ولكن كل هذا لم يكن له أى نصيب يذكر فى هذه الصناعة فى مصر (١) .

على أن مصر الإسلامية عرفت فناً آخر كانت له قيمته وكان لرجاله قدر فنى . هو فن الخط ، ويجىء عندهم فى طليعة الفنون الإسلامية . فقد كان الولاة والأمراء يدفعون عن طيب خاطر ، الهبات الطائلة للخطاطين المهرة لكتابة آيات القرآن الكريم بالخط النسخ . وفى دار الكتب المصرية بالقاهرة مجموعة فريدة من المصاحف والمخطوطات (٢) .

واستخدمت الكتابة أيضاً فى زخرفة جدران المساجد وغيرها من المدارس والأسبلة ، ولا تزال توجد بالقاهرة نماذج جيدة لها ، وقد وجد الخط الكوفى ، ولا سيما إذا كان يطل من زخارف أخرى متداخلة ، أصلح من غيره للنقش فى الحجر .

ونشأت صناعة أخرى لها مكانتها فى الفن الإسلامى . هى صناعة المشربيات الخشبية والتى تزين الدور الخاصة والمبانى العامة على السواء . ولا تزال ترى بعض قطعها النادرة فى قليل من دور القاهرة التى خلفتها العصور الإسلامية .

واستخدم العاج والعظم فى أعمال الزخرفة كما استخدمت سلوك الذهب والفضة والميناء فى زخرفة الأحجار والمعادن . وكل هذا يدل على مهارة صناع مصر ،

---

(١) فنون الإسلام . الدكتور زكى محمد حسن ص ٢٣١ — ٢٣٢ .
(٢) فنون الإسلام . الدكتور زكى محمد حسن ص ٢٣٤ — ٢٣٧ .

وعلى روح الفن التى سادت الصناعة . وفى مصر والقاهرة خاصة ودور التحف ، من الأدلة الساطعة على تفوق رجل الفنون المسلم .

وكانت المنسوجات المصرية الإسلامية والتحف المصنوعة من البلور الصخرى ذات شهرة عالمية فى العصور الوسطى . وقد تيسر الاهتداء إلى معلومات قيمة فى تاريخ صناعة النسيج وتطورها فى مصر تبعاً لأعمال التنقيب والبحث فى الفسطاط وغيرها من المدن الاسلامية ، على أن هذه البحوث دلت على أن الفن القبطى لم يمت عند ما دخل المسلمون مصر ، بل ظلت له آثاره وطابعه الخاص مما يدل على الطلاقة والحرية التى عاش فيها الأقباط متآخين مع المسلمين من العرب .

ونشأت فى مصر وازدهرت صناعة السجاد ، وبالرغم من أن هذه الصناعة لم تصل إلى درجة صناعة فارس وتركيا فى الجودة إلا أنه كان لها شهرتها وطابعها الخاص الواضح فى طراز زخرفتها .

كذلك تأثر فن نحت المعادن بعدة مؤثرات أجنبية من خارج مصر ، أهمها التى جاءت من الموصل ، ولكن مع هذا قد ازدهرت إلى درجة كبيرة فى أيام المماليك .

وبلغت ذروة نهضتها وتقدمها إبان القرن الرابع عشر الميلادى . وقد أدخلت فى هذه الصناعة المصرية بعض طرز إيرانية كصور الحيوان والنباتات ثم اتخذت الأشكال والرسوم الهندسية .

على أن كل هذه الصناعات قد ازدهرت فى عصرين أولها : أيام الفاطميين ، وسبب ذلك اضمحلال سلطة بغداد وتوزع صناع العراق المهرة بين مختلف البلدان الاسلامية . فكان نصيب مصر منها نصيب الأسد . أما العصر الثانى فكان فى أيام السلاطين المماليك . وإنا لنلمس فى ذلك الوصف الرائع الذى دبجه (ستانلى لينبول) فى كتابه «الفن الاسلامى فى مصر» تلك الأبهة الفاخرة والواجهة الزاهرة التى كانت

---

(١) والمعروف أن أقدم ما نعرفه من جلود الكتب الفنية ينسب إلى مصر فى القرنين الثانى والثالث بعد الهجرة (٨ — ٩ م) . ولا ريب أن سائر الأقطار الإسلامية تأثرت بزخارفها وأساليبها الصناعية بل إن تأثيرها امتد إلى جنوب أوربا ولاسيا إيطاليا (الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٣٧) .

تقسم بها حياة سلاطين مصر فى قصورهم ومحافلهم ، وورونق بلاطهم ، وترفهم فى معاشهم ورياشهم وطنافسهم وملابسهم وتنسيق بيوتهم وتكفيت أسلحتهم . كل ذلك نلمحه بين تلك الكنوز الدارسة من آثارهم الجميلة التى نجت من يد الفناء . . تلك الآثار القليلة المحفوظة فى متحف الفن الإسلامى أو فى متاحف الغرب .

اشتهرت مصر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بصناعة نوع فريد من المنسوجات الصوفية عرفت باسم الطراز ، وكانت تقوم صناعتها فى مدينة تانيس ، ويقال إنه كان بها ثمانون منسجاً للأقمشة . وكان السلطان يستمد منها ما يلزمه من الطنافس والملابس، وكان من منتجات هذه المدينة أيضاً ستائر الكعبة التى ترسل سنوياً إلى مكة فى صحبة المحمل .

وكشف التنقيب عن الآثار فى الفسطاط عن أوان زجاجية صنعت فى الفسطاط عام ١٦٣ هـ (٧٧٩) وأخذ الزجاجون فى تلك المدينة بعد سنوات يزخرفون الأوانى الزجاجيه بأسلوب البريق المعدنى ، شأنهم فى هذا شأن صناع الخزف ، وتنوعت ألوان الطلاءات المعدنية على أسطح أوانيهم، وكشفت فى حفائر الفسطاط عن كأس جميلة من الزجاج مزخرفة بالبريق المعدنى البنى وتزينه زخارف نباتية منوعة وعلى حافته من الخارج كتابة كوفية نصها : « الأمير عبد الصمد بن على أصلحه الله وأعز نصره » ، وهذا الأمير كما أثبت الأستاذ عبد الرءوف يوسف الأمين بمتحف الفن الإسلامى ، كان واليا على مصر سنة ١٥٥ هـ (٧٧٢/٧٧٣) من قبل الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور .

وعلى مر السنين تطورت صناعة الزجاج وتأنقت أشكالها وزخارفها بالتذهيب والمينا الملونة ثم بلغت ذروة الكمال فى القرن الخامس عشر أو قبيل ذلك ، ولا سيا فى صناعة المشكاوات الجميلة التى ازدانت بها المساجد والقصور فى عصر المماليك . ويحتفظ متحف الفن الإسلامى بمجموعة فاخرة منها ، ونذكر على سبيل المثال ، مشكاة باسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وعلى بدنها كتابة نسخية على أرضية بالمينا الزرقاء ، كما تمثل مجموعة مشكاوات السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون بمتحف الفن الإسلامى أعظم مجموعة تحمل إسم سلطان واحد ، فيبلغ عددها تسع عشرة مشكاة ، على بعضها كتابات أو رنوك تحمل

إسمه ، وعلى البعض الآخر زخارف نباتية عربية أو رسوم نباتية وترجع هذه المجموعة إلى ما قبل وفاة السلطان حسن سنة ١٣٦١ م .

لا غرو فى روعة ذلك التراث فقد كانت خيرات مصر واسعة إلى أبعد حد . وكان بين يدى حكام مصر ثروتها الطبيعية ، فضلا عن الأرباح الوفيرة التى كانوا يجنونها من مرور تجارة الشرق فى مصر والشام . وأصبحت مصر المركز الرئيسى لتبادل التجارة بين آسيا وافريقية وأوروبا منذ أن ضعفت بغداد ثم سقطت فى يد المغول . فصار ثغر الإسكندرية (مخزن العالم) كما كانوا يسمونه إلى أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح، فكان ذلك سبباً فى خراب مصر المالى وإيذاناً بسقوط دولة المماليك(١) .



مشكاة من الزجاج المموه بالميناء باسم السلطان الناصر محمد
من صناعة مصرية ترق إلى القرن الثالث عشر الميلادى
عن متحف الفن الإسلامى

(١) الدكتور زكى محمد حسن : مصر والحضارة الإسلامية ص ٣٧

العمارة وهندسة البناء

فى شهر نوفمبر عام ١٣٨٢ حظيت القاهرة بقدوم المؤرخ والفيلسوف التونسى عبد الرحمن بن خلدون ، فبهرته عظمتها وجمال عمارتها ، فرأيناه يسجل انطباعه عنها فى مذكراته ، قائلا :

« انتقلت إلى القاهرة أول ذى القعدة عام ٧٨٤ ﻫ (١٣٨٢) ، فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه ، وتضىء البدور والكواكب من علمائه . وقد مثل بشاطىء بحر النيل نهر الجنة ، وموقع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجة ، ومررت فى سكك المدينة التى تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم . . » ثم ختم حديثه قائلا : ومن لم يرها (يقصد القاهرة) لم يعرف عز الإسلام[1] .

واستقر ابن خلدون فى القاهرة ما يقرب من ربع القرن حتى توفاه الله فى سنة ١٤٠٦ بعد أن شغل عدة مناصب دينية وعلمية كبرى ، كان من أهمها وأرفعها مناصب القضاء .

وقد عاصر ابن خلدون فى مصر زميلا ومؤرخا نعرفه حق المعرفة ، وهو العلامة أحمد بن على المقريزى (١٣٦٤ — ١٤٤١) الذى وصف لنا القاهرة وعمائرها وأخطاطها ، وأمدنا بتاريخ وافٍ عن هذه المدينة الجليلة ، حينما تناثرت فيها المساجد والأضرحة والدور والقصور والمدارس والحمامات والوكالات والأسواق ، وكل منها يحكى قصة تاريخية جليلة عن منشئها ومهندسها ، وجمال عمارتها . وموجز القول ، فقد كانت القاهرة فى تلك الأيام (القرن الخامس عشر) مدينة رائعة الجمال فخمة البناء

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ ﻫ — ٨٠٨) : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، حققه الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥١ .

فخمة البناء ، ترصعها العمائر الرائعة فى كل حى من أحيائها التليدة . . كانت جميع المبانى العتيقة التى نمر بها اليوم ، كمدرسة السلطان حسن ، وقصور الأمراء ماماى ويشبك وبشتك ومنجك اليوسفى ، وعمائر الناصر محمد بن قلاوون وأبيــه ، كانت جميعها فى قمة مجدها حينذاك .

تلك هى القاهرة التى يجدنا ذكرى تأسيسها . المدينة الألفية التى تفخر بأزهرها الجليل على مر الزمن . القاهرة التى احتوت على مئات من الكنوز الأثرية التى تحكى تاريخها خلال ألف سنة . . وكأنها موسوعة معمارية ، تصف طراز كل عصر وأسلوب كل زمن فى فنون البناء والزخرفة والنقش: مآذن وقباب، ومحاريب وأضرحة، وأسبلة نشاهدها . تمر بمرحلة تطور معمارى فى متحف يوضح ازدهار أساليب العمارة التى امتازت بها القاهرة .

إننا نعرف أسماء جميع الحكام الذين أسهموا فى بناء عمائر القاهرة، ولا سيما السلاطين المماليك وأمراؤهم فأقاموا المدارس والمساجد والخوانق والمدافن التى تميزت بالتأنق فى مآذنها وفى قبابها، وقد جهل معظم هؤلاء الحكام روح الإسلام، فحسبوا هذا الدين السمح مظاهر من بناء مساجد ومدارس ومستشفيات وخوانق ومشاركة فى صلوات عامة لاتنهاهم عن فحشاء ولا ترد عهم عن منكر(١) . وعلى أية حال فقد كان لهؤلاء المماليك مزايا أخرى ، فى طليعتها الجهاد المسلح فى سبيل تحرير الأراضى الإسلامية من الصليبيين المعتدين وقــد ظفروا ، والحق يقال .

فمن هم أولئك الرجال من مهندسين ومعماريين وبنائين وزخرفيين أصحاب الفضل الأول فى بناء القاهرة وتشييد مبانيها الجليلة .

لا شك أن هناك أسماء لا يمكن بأية حال من الأحوال أن نجهلها ، وهى أسماء القائد جوهر الصقلى بانى القاهرة والأزهر والقصر الكبير الشرقى، وهناك سيده المعز لدين الله وابنه العزيز بدين الله الذى يعزى إليه بناء جامع الحاكم بأمر الله .

(١) محمد الصادق حسين : البيبرس بكى بيت علم فى دولتى المماليك ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ١٩٤٨

وإن لم يكمله ، وهناك أيضاً القائد الحازم بدر الدين الجمالى الذى أعاد بناء أهم بوابات القاهرة من الحجارة بدلا عن اللبن ، وكذلك ابنه الأفضل . ولن ننسى أيضاً صلاح الدين الأيوبى وقائده قره قروش الذى شيد أمجد بناء مازال شامخاً فوق المقطم وهو قلعة الجبل المعروفة بقلعة صلاح الدين . وإلى جانب أولئك الرواد الذين صنعوا القاهرة ، توجد طائفة تدين المدينة الكبرى لهم لما شيدوه فيها من المبانى الرائعة . فقد أمدتنا وثائق العصر المملوكى بأسماء طائفة من مهندسى العصر المملوكى البارزين ، كالمعلم إبن السيوفى رئيس المهندسين فى أيام الناصر محمد بن قلاوون ومشيد مسجد الماردانى والمدرسة الأقبغاوية بالأزهر(١) . والمهندس أبجيج الذى أشرف على بناء قاعة الدهيشة التى كانت تطل على الحوش بقلعة الجبل وقد عمرها السلطان الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون سنة ٨٤٥ هـ (١٣٤٤) ، وأبو بكر المعروف بابن قيسون ، وأحمد بن على المهندس المعروف بابن الرسول ، وإبراهيم بن عبد الله بن يوسف . وهناك المهندس محمد بن بيليك المحسنى مهندس مدرسة السلطان حسن ، وهو واحد من أسرة اشتهر بعض أفرادها بهندسة البناء ويعتبر عمله الشامخ من أعظم العمائر الإسلامية فى العالم .

فى النصف الأول من القرن التاسع شيد أبو بكر البناء (٢) لأحمد بن طولون عدة مبان وفى فلسطين شيد حصناً منيعا فى عكا . كما وصل إلينا إسم المهندس إبراهيم بن غنائم بن سعيد الذى بنى القصر الأبلق بالقلعة وضريح السلطان الظاهر بيبرس بدمشق عام ١٢٧٧ (٦٧٦ هـ) ولا يزال إسمه منقوشا أعلى باب هذا الضريح ويعرف اليوم بالمدرسة الظاهرية .

ابن السيوفى :

فإذا انتقلنا إلى عصر دولة المماليك الأولى وهو عصر البناء ، ولاسيما فى أيام أسرة قلاوون ، يقابلنا ابن السيوفى فى طليعة مهندسى الناصر محمد بن قلاوون .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨٤

(٢) يظن أن ابن الرومية هو الذى بنى فوارة مسجد أحمد بن طولون عام ٣٨٥ هـ (٩٩٥) بأمر الخليفة العزيز بالله .

ذكره المقريزى فى خططه عند كلامه على مدرسة الأمير عبد الواحد أقبغا الكائنة على يسرة الداخل إلى الأزهر من بابه الرئيسى المعروف بباب المزينين وهى الآن مقر المكتبة الأزهرية . كان ذلك فى سنة ٧٤٠ هـ — ١٣٣٩/٤٠ . وقد شيد ابن السيوفى مسجد الطنبغا الماردينى ، وهو تحفة رائعة فى الدرب الأحمر ، كما بنى مئذنته أيضاً .

شهاب الدين أحمد بن أحمد بن محمد الطولونى :

وهذا مهندس آخر ، إبن محمد الطولونى . عاش فى القاهرة وبنى مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق عام ٧٨٨ هـ —١٣٨٦ ،كانت له حظوة كبرى عندالسلطان فرقاه إلى رتبة الخاصكية ثم منحه لقب أمير عشرة. وفى سنة٧٩٤هـ —١٣٩١/٢ تزوج برقوق من ابنتـه . ثم أوفـده عدة مرات إلى مكة لإصلاح مسجد الحرم وبعـد فراغه من العمارة فى آخر المرات توفى وكان ذلك فى ١٠ صفر ٨٠٢ هـ — ١٣٩٩ (١) .

ومن أشهر مهندسى دولة المماليك الثانية (الشراكسة) :

على بن محمد بن أحمد المعروف بأبى الحسن .

ابراهيم بن عبد الله المهندس .

اسماعيل بن على بن محمد المندس المعروف بابن الفقيه .

على بن محمد بن عبد القادر المهندس المعروف بابن الصياد .

والمهندس محمد بن القزاز الذى شيد منارتى مسجد المؤيد شيخ الملاصق لباب زويلة ٨٢٢ هـ —١٤١٩ . وقد استفاد إبن القزاز من وجود هـذا الباب العظيم لصق المسجد، فاتخذ من بدنتيه قاعدتين لمنارتيه ، وكان موفقا حقا . وهما منارتان رشيقتان لكل منهما ثلاث دورات حليت بالكتابات والنقوش ، وتقوم الدورة الثالثة على عمد رشيقة ، وكتب على المأذنة الشرقية : « عمل هذه المـأذنة المباركة العبـد الفقير إلى الله تعالى محمد بن القزاز وكان الفراغ أول رجب سـنة اثنتين وعشرين وثمان مائة » . وكذلك نقش على المأذنة الغربية «كتابة بهذا المعنى وتاريخها ثلاث وعشرين وثمان مائة » .

(١) الضوء اللامع للسخاوى : جـ ١ ص ٢٢١ . أنظر أيضا جـ ٦ ص ٢٠٨ .

حسن بن حسين الطولونى :

ولد بالقاهرة فى عام ٨٣٦ هـ — ١٤٣٢ / ٣٣ ونشأ فى أسرة من رجال العمارة وتلقى العلم على السخاوى المؤرخ المصرى الذى أثنى عليه كثيراً . تقدم فى عمله حتى نال حظوة السلطان إينال وفى ربيع الأول عام ٨٥٧ هـ — ١٤٥٣ عينه معلم المعلمين ومعلم المعمارية . شيد ضريح خشقدم بالقاهرة ومنحه خلعة الشرف فى ٩ ربيع ثان عام ٨٦٦ هـ — ١٤٦٢ حينما زاره السلطان فى أثناء قيامه بالعمل بيد أنه استغنى عنه بعد زمن وعين مكانه بدر الدين حسن الطنامى عام ٨٦٩هـ — ١٤٦٤/٥ ثم استدعاه ثانية ورفت مرة أخرى !

وفى شوال عام ٨٧٤ هـ — ١٤٨٠ تولى المنصب بدر الدين محمد بن السكويز (وسنتكلم عنه) ويبدو أنه استعاد منصبه بدليل أن السلطان ندبه للقيام بإصلاحات فى مسجد القلعة وتوسيع صهريج المياه الخاص بالفوارة . وكان يقوم بالعمل فى صفر عام ٨٨٦ هـ —١٤٨١. وفيما بين ربيع الثانى من العام المذكور وشهر رجب ٨٩٦ هـ — ١٤٨١ — ١٤٩١ قام بإصلاح جامع جزيرة الروضة وبناء طواحين المياه (النواعير) بالقاهرة ... وكانت تعتبر من مشاهد القاهرة ،وربما أصلح ابن الطولونى حينذاك مقياس النيل . وفى عام ٨٩٢ أصلح قنطرة أبى النجا ، ثم أدى فريضة الحج فى عام ٨٩٨ هـ — ١٤٩٣ . ومن المحقق أنه كان رئيسا للمعلمين فى عام ٩٠٨ هـ — ١٥٠٢ / ٣ . وتوفاه الله بعد تأديته فريضة الحج عام ٩٢٣ هـ — ١٥١٧ ،وكان ابنه شهاب الدين أحمد خلفه رئيسا للمعلمين لما فقد والده بصره . وقد ذكر اسمه بين أعيان الصناع الذين رحلوا إلى الآستانة عام ١٥١٧ بعد فتح العثمانيين لمصر .

بدر الدين محمد بن السكويز :

من معمارى عصر السلطان الأشرف قايتباى . عينه فى ٨ شوال ٨٧٤ هـ — ١٤٧٠ معلم المعلمين بدلا عن حسن الطولونى . وفى ذى الحجة من عام ٨٧٥هـ —

Mayer, L. A. Islamic Architects and their works—Genéve, (١) 1956.

١٤٧١ بدأ بإصلاح الديوان الكبير فى قلعة الجبل . وكان القاضى أبو بكر محمد بن مزهر كاتب سر السلطان قايتباى هو المشرف على هذا العمل وقد أنفق عليه حوالى ٢٠٠٠٠ دينار . وفى شعبان ٨٨٣ هـ — ١٤٧٨ عين ناظرا الخاص (الأعمال الخاصة بالسلطان) . وتوفى ابن الكويز فى شعبان ٨٨٥هـ — ١٤٨٠ وهو فى الثامنة والخمسين .

ومن مهندسى عصر السلطان قايتباى أيضا :

المعلم ابراهيم الشهير بالسكرى[١] .

عبد الله ابن شعبان ابن سليمان المهندس .

أحمد بن محمد بن أحمد المشهور بابن العظمة .

المعلم محمد بن أحمد بن على النشادرى المعروف بابن سبيع ، ولعله كان من المهندسين الذين كلفهم الأتابكى أزبك بن ططخ بإقامة مسجد ودوره الجليلة فى الأزبكية ، وكان لهذا المهندس الثرى معملا لصنع النشادر بخط باب اللوق[٢]

ومن مهندسى عصر السلطان قانصوه الغورى :

المعلم الشمسى محمد بن المعلم اليحيوى عبد القادر بن الصياد .

أحمد بن على بن أحمد المعروف بالسحراوى .

يوسف ابراهيم بن عبد الله المعروف بمهندس باب السلسلة بالقلعة .

وهؤلاء المهندسون الذين شيدوا القاهرة وجملوها بالعمائر التى نشاهد بقية منها إلى اليوم تكملهم طوائف النحاتين والبنائين والمرخمين والنجارين وغيرهم من أصحاب المهن والحرف الأخرى ، ومما يؤسف له أنه لم يصلنا أسماء الكثير منهم فمن البنائين والنحاتين: حاتم البنا وابنه من بنائى الفاطميين، وأسرة المعلم يونس البرلسى وقد أسهمت فى بناء مسجد أحمد البهجم بأبيار سنة ١٠٤١ هـ — ١٦٣١ ومن المرخمين محمد بن أحمد وأحمد زغلش الشامى وقد كتبا اسميهما على جانبى باب قصر قوصون (ح ١٣٣٨ م) وهو باب جميل لاشتماله على مقرنصات وكتابات

(١) وثيقة قايتباى أوقاف ٨١٠ .

(٢) وثيقة أزبك بن ططخ محكمة ١٩٨ . أنظر أيضا د. عبد اللطيف ابراهيم : سلسلة الدراسات الوثائقية ص ٨٠ — ٨١ .

دقيقة ، وعبد القادر النقاش الذى قام بنقش رخام مدرستين من أفخم مدارس دولة المماليك الشراكسة وهما مدرستا قجماس الاسحقى وأبو بكر مزهر ، وقد كتب اسمه فى مسجد قجماس المنشأ سنة ٨٨٥—٨٨٦ ﻫ (١٣٨٠ - ٨١) فى دائرة زخرفية بتجويفة المحراب طردا وعكسا بما نصه : (عمل عبد القادر النقاش) ، وكتبه بشكل زخرفى آخر فى خواصر العقود ، وكذلك كتب اسمه فى خواصر عقود المدرسة المزهرية ، وفى جحور الشبابيك[1]. وهنا أيضا المرخم على بولاقى الذى نقش اسمه على شاهد قبر اسماعيل بك دفتردار مصر (ت ١١٣٣ﻫ — ١٧٢٠).

ومن النجارين ، وصل إلينا أسماء كثيرة منهم ، نذكر : محمد بن عيشو أحد نجارى جامع ابن طولون وقد كتب اسمه بالكوفية على ظهر ألواح الإزار الكوفى وعلى بعض أجزاء السقف . وغبيد النجار المعروف بابن معالى وهو الذى صنع تابوت الإمام الشافعى سنة ٥٧٤ ﻫ — ١١٧٨ فى أيام صلاح الدين وهو تحفة بديعة جدا ويعتبر من أرق نماذج أعمال النجارة والحفر فى الخشب ، وقد كتب الصانع اسمه فى الطرف العلوى للغطاء الهرمى وبخط صغير ، والنجار أحمد ابن عيسى بن أحمد الذى صنع منبر مدرسة أبى بكر مزهر بحارة برجوان التى بنيت فى سنة ٨٨٤ ﻫ — ١٤٧٩ وله منبر آخر فى جامع النمرى ، والنجار على بن طنين صانع منبر مسجد أبى العلاء الذى شيد حوالى سنة ٨٩٠ ﻫ — ١٤٨٥ وهو منبر تميز بتقاسيم ريشى جانبية ويعتبر مثالا كاملا لأعمال النجارة فى دولة المماليك الشراكسة .

أما المكفتون والنحاسون فكثيرون، وقد وصلت إلينا طائفة من أعمالهم الفنية المحفوظة فى متاحف العالم، ومنهم أحمد بن بارة الموصلى الأصل الذى صنع صندوقا للربعة الشريفة ومكفتا بالذهب والفضة باسم الناصر محمد بن قلاون فى سنة ٧٢٣ﻫ ١٣٢٣ ، وهو الآن مودع بمكتبة الجامع الأزهر . وبدر بن أبى يعلا صانع الثريا الكبيرة الموجودة فى متحف الفن الإسلامى وهى من النحاس الأصفر ومكونة من خمس طبقات وهى باسم الأمير قوصون مؤرخة سنة ٧٣٠ﻫ — ١٣٣٠ .

---

(١) حسن عبد الوهاب : توقيعات الصناع على آثار مصر الاسلامية . مقال نشر فى مجلة المجمع المصرى ، ج ٣٦ (١٩٥٣ — ١٩٥٤) .

الموسيقى

ولم يصل إلينا أسماء الكثيرين من أعلام الموسيقيين فى مصر على أيام المماليك وليس معنى هذا أن مصر حرمت هذا اللون من الفنون . ومع ذلك فلدينا :

شمس الدين محمد بن عيسى بن قره الحنبلى :

وهو موسيقى صاحب نظريات فيها . ولد فى القاهرة حوالى عام ١١٨٢م ، وعاش فى مصر حتى عام ١٣٥٨ م . وقيل إنه من سلالة خلفاء بنى أمية . ألف رسالة فى الموسيقى ، عنوانها : « غاية المطلوب فى فن الأنغام والضروب » ذكرها الحاج خليفة فى كشف الظنون ، وكذلك بروكلمان فى ملحقه الثانى (ص ١٧٣ عام ١٩٣٨) وذكرها العلامة المستشرق فارمر (ص ٥٣) .



* * *

تلك هى بعض ملامح أعلام القاهرة فى العلوم والفنون منذ أسست حتى عصر المماليك .. ولا نعتبر أن هذا الثبت كاملا .. فهناك مئات ومئات من علماء علوم الدين والأدب والشعر والتصوف لم نذكرهم ، وقد كتب المؤرخون عنهم وأفاضوا ويمكن الرجوع إلى أسمائهم ومؤلفاتهم فى الموسوعات التاريخية والمراجع الأدبية الكثيرة ، فقد عنينا هنا فقط بالعلميين فقط : أطباء ، فلكيون ، فيزيقيون ، رياضيون ، ومعماريون . . . .

أهم آثار العصر الفاطمى بالقاهرة

(٣٥٨ / ٥٦٧ هـ — ٩٦٩ / ١١٧١ م)

رقم الأثر	الأثر	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
٩٧	الجامع الأزهر	٣٥٩—٦١	٩٧٠—٧٢
١٠٥	جامع الحاكم بأمر الله	٣٨٠—٤٠٣	٩٩٠—١٠١٣
٥١٥	بقايا مسجد اللؤلؤة	٤٠٦	١٠١٦
٤٧٧	زاوية أبو الخير الكليباتى (مدخل جامع الحاكم)		
٣٠٤	مسجد الجيوشى (بدر الجمالى)	٤٧٨	١٠٨٥
٦	باب الفتوح	٤٨٠	١٠٨٧
٧	باب النصر	٤٨٠	١٠٨٧
٣٥٢	سور القاهرة الشمالى	٤٨٠	١٠٨٧
١٩٩	باب زويلة	٤٨٥	١٠٩٢
٥١١	قبة الشيخ يونس	ح ٥٨٧	١٠٩٤
٤٢٨	قبة موفى الدين	القرن ٥	القرن ١١
٣٠١	مشهد إخوة يوسف (الأسباط)	أول القرن ٦	القرن ١٢
٣٣٣	قبتا السيدة عاتكة والجعفرى	٥١٤—١٩	١١٢٠—٢٥
٥١٦	بقايا مشهد كلثم	٥١٦	١١٢٢
٣٣	جامع الأقمر	٥١٩	١١٢٥
٣٧٣	مشهد السيدة رقية	٥٢٧	١١٣٣
٣١٥	قبة الحصواتى	منتصف القرن ٦	منتصف القرن ١٢
٢٨٥	قبة يحيى الشبيهى	ح ٥٤٥	١١٥٠
١٠٩	مصاريع جامع الفكهانى	٥٤٣	١١٤٨
٢٨	باب المشهد الحسينى	٥٤٩	١١٥٤
٢٨٤	قبة القاسم الطيب	منتصف القرن ٦	القرن ١٢
١	منارة أبو الغضنفر	٥٥٢	١١٥٧
١١٦	مسجد الصالح طلائع	٥٥٥	١١٦٠

أهم آثار العصر الأيوبى بالقاهرة

(٥٦٧ / ٦٤٨ هـ — ١١٧١ / ١٢٥٠م)

رقم الأثر	الأثر	التاريخ الهجرى	التاريخ الميلادى
٦١٤	باب البرقية	٥٦٦—٧٢	١١٧١—٨٦
٦١٨	باب القرافة	٥٦٦—٧٢	١١٧١—٧٦
٣٠٧	سور صلاح الدين	٥٧٢—٧٩	١١٧٦—٨٣
٣٥٢	سور مصر القديم (صلاح الدين)	٥٧٣—٨٩	١١٨٦—٩٣
٣٠٥	بئر صلاح الدين بالقلعة	٥٧٢—٨٩	١١٧٦—٩٣
٥٥٦	قلعة الجبل	٥٧٩	١١٨٣—٨٤
٢٨١	قبة الإمام الشافعى	٦٠٨	١٢١١
٢٨٢	باب وإيوان الثعالبة	٦١٣	١٢١٦
٤٢٨	المدرسة الكاملية	٦٢٢	١٢٢٥
٣٠٦	شاهد الفخر الفارسى	٦٢٢	١٢٢٥
٢٨	منارة المشهد الحسينى	٦٣٤	١٢٣٦
٢٧٦	قبة الخلفاء العباسيين	ح ٦٤٠	١٢٤٢—٤٣
٣٨	مدرسة وقبة نجم الدين أيوب	٦٤١ - ٤٨	١٢٤٣—٥٠
١٦٩	قبة شجرة الدر	٦٤٨	١٢٥٠
٣	قبة أبو الغضنفر الفائزى	أوائل القرن ٧	القرن ١٣

المراجع

ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء .
ابن الأكفانى ، محمد : نخب الذخائر فى أحوال الجواهر ، تحقيق الأب أنستاس الكرملى ، القاهرة ١٩٣٩ .
د . أحمد عيسى : معجم الأطباء ، القاهرة ، ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ .
د . بول غليونجى : ابن النفيس ، سلسلة كتب أعلام العرب رقم ٥٧ ، القاهرة .
جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ، خمسة أجزاء ، القاهرة .
د . زكى محمد حسن : فنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨ .
. . . . : مصر والحضارة الإسلامية ، سلسلة الثقافة العسكرية .
السخاوى : الضوء اللامع فى أعلام القرن التاسع ، القاهرة
د . سيدة إسماعيل كاشف بالاشتراك مع د . حسن أحمد محمود : مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين ، القاهرة ، ١٩٦٠
السيوطى ، جلال الدين : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .
عبد الرحمن زكى : تراث مصر فى الحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٥١ .
. . . . : القاهرة من جوهر إلى الجبرتى ، القاهرة ١٩٦٥ .
. . . . : موسوعة مدينة القاهرة ، ١٩٦٩
د . عبد اللطيف إبراهيم : دراسات فى الكتب والمكتبات الإسلامية ، القاهرة .
على مبارك باشا : الخطط التوفيقية الجديدة ، القاهرة ، ١٨٩٢ .
قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ، القاهرة .
القفطى ، جمال الدين : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مطبعة السعادة .
القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، القاهرة .
محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، دار النشر الحديث ، القاهرة .
المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . القاهرة .
ميبلى ، ألدو : العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى ، دار القلم ١٩٦٢ .
دائرة المعارف الإسلامية ، القاهرة .
مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، القاهرة .
المقتطف .
الموسوعة العربية الميسرة : ١٩٦٤

Glanville (Editor): Legacy of Egypt. 1947

Mayer hof, Max: Climate and Health in Old Cairo, according to Ali Ibn Radwan. Cairo, December 1928.

Partington, J. R.: A History of Greek fire and Gunpowder. Cambridge.

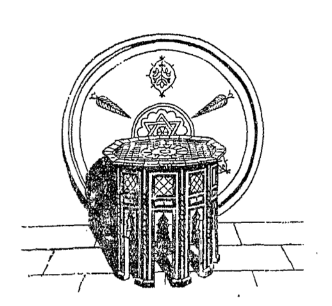
Sarton: Introducion to the History of Science. 3 vols.

Sbath, Paul: Catalogue de manuscrits Arabes. 3 parts

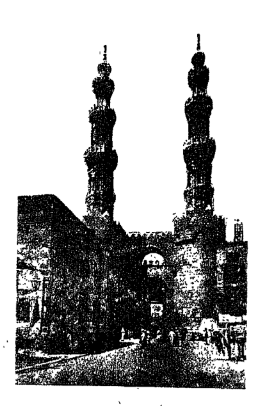
مطبعة الشرق ، القاهرة ١٩٣٨ — ١٩٤٠

———— : Deux Traités médicaux édités et traduits par P.

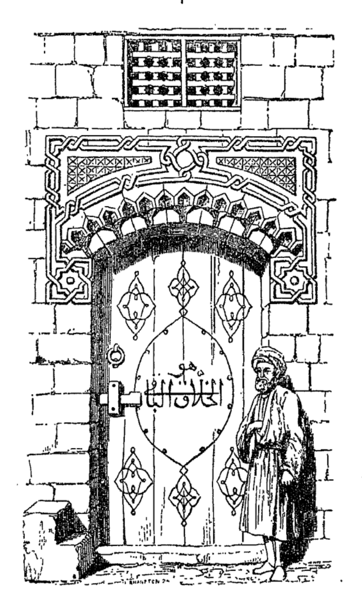
Sbath et Chr. Avierinos Inst. F.A.O., Le Caire 1953.



محتوى الكتاب



فهرست الأعلام


هو
الخلاق الباقى

للمؤلف

- القاهرة من القائد جوهر إلى المؤرخ الجبرتى (٩٦٩ — ١٨٢٥)
- موسوعة مدينة القاهرة
- بناة القاهرة ، السلسلة الثقافية
- الفسطاط . السلسلة الثقافية
- الأزهر وماحوله من الآثار
- القلعة وما حولها من الآثار
- قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية أخرى « مجموعة الألف كتاب »
- السيف فى العالم الإسلامى
- الجيش فى مصر القديمة .
- الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا وغربها جزءان .

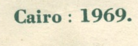
تطلب من المكتبات العامة
ومكتبة الأنجلو المصرية
شارع محمد فريد بالقاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية

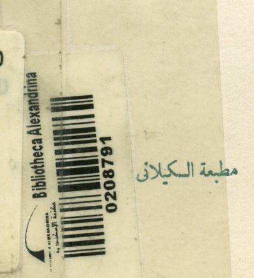
١٩٦٩/٢٤٥٥

MEDIEVAL LEGACY OF CAIRO

Dr. ***A. Rahman Zaky***



Cairo : 1969.



مطبعة السكيلانى